هشام الخشن
رواية
ناعومي وأخواتها
الدار المصرية اللبنانية

في داخل كل منّا أصوات: تلوم وتبرئ، تهاجم وتدافع، تقسو وتحنو، تعلو وتخفت، ثم تتناغم فيخرج للعالم صوتنا.

1

حين صحوت وجدتني ممددة على سرير في وسط حجرة حوائطها بيضاء بها نافذة تتسلل من بين قضبانها الحديدية أشعة الشمس. احترت. متى جاءت الشمس؟ ومتى ذهب المساء؟

أحسست بوحشة. لا أدري لمَ تذكرت أني لم أتصل بأمي. كنت قد أكدت على نفسي أن أتصل بها صباحًا. تعالت عدة أصوات في دماغي. صوت رقيق، به لكنة ريفية وشيء من شجن، يحثني على الاستسلام، وإن لم أعرف ما الذي يجب أن أستسلم له. صوت آخر كان حزينًا، يتحدث بالإنجليزية، يلومني بأنني السبب فيما يحدث، وأن أمي ستغضب مني لما وصلت إليه، وقد حذرتني مرارًا وتكرارًا. وفي خلفية كل ذلك استمر نحيب طفلة يعلو ويخفت في ذهني. تناوبت عليَّ الأصوات فرفعت يديَّ أغلق بهما أذنيَّ لعل تلك الأصوات تختفي.

بدأت أستعيد مجريات اليوم من أوله. أيقنت منذ بدايته بلا أدنى شك أنه لن يكون يومًا عاديًا. ذلك دائمًا حال اليوم التالي لمشاداتي مع عصام. يصبح لزامًا عليَّ أن أجد طريقة لمصالحته مهما كانت أسباب الخلاف، ومهما تمسكت أثناء صياحنا بأنه المخطئ. هكذا درجنا، نختلف وننفعل كلٌّ منَّا على الآخر ثم يعم الصمت ويحل النوم، وفي اليوم التالي أبدأ في إعادة الهدوء إلى حياتنا. نعم، أنا مسئولة عن إعادة الأمور إلى وضعها ومسح أي رواسب عالقة مهما أفضل أن أصفه بمناقشاتنا. حلوة كلمة مناقشة؛ إذ إنها تزين الحقيقة بكثير من الرقي. الواقع أنني إن وصفت ما يجري بيننا وقت العراك من تشاتم وصراخ لتيقن المنصت أنه سيحتاج، إن شهده، إلى أن يفصل بيننا خشية بلوغنا حد التشابك بالأيادي.

وقت استيقظت، صباحًا، لم يكن برأسي أي تفاصيل لمشادتنا. أول ما قفز بذهني كانت وجوبية مكالمتي اليومية مع أمي وما يملؤها من عتابها المستمر لي. ابتسمت ابتسامة بائسة بعض الشيء وأنا أعزو ذلك إلى أن كل حديث معها به لوم لي على شيء فعلته أو لم أفعله، فكرت به، أو في أحيان كثيرة لم يدر بخلدي. لا بد وأن تجد بي عيبًا من وجهة نظرها. قررت أن أؤجل المكالمة لمَّا بدأت مشادة المساء مع عصام تحتل تفكيري. استغربت تأكدي من صياحنا في وجه بعضنا دونما قدرة مني على استعادة تفاصيل أو أسباب لذلك. تذكرت أن كلًّا منَّا راح يُقلب في أوراق قديمة ويردد ما أصبح واجبًا ذكره كلما اختلفنا بغض النظر عن مسببات الاختلاف. وكأن عدم ترديد تلك الشكاوى من بعضنا لا يجعل عراكنا مكتملًا. ركزت كثيرًا وانتهيت فاشلة وأنا أحاول أن أتذكر مسببات غضب جعلنا ننهي ليلتنا متخاصمين.

وأنا أنهض من سريري بالبيت، كنت قد عزمت على إصلاح الأمور. ليس مهمًا مَن بدأ ولا مَن المخطئ، المهم أن نتصالح. لا أجد ذلك مهمًا فقط، بل أجده واجبًا عليّ، واجبًا غدوت مقتنعة أنني أحب أداءه. حين أقوم بذلك أجدني أفعُل خصلةً بي أستمتعُ بها. أسعَدُ حين تصفني بها أمي: «أصلك طيبة». أعلم أنها في الأغلب لا تصفني بذلك على سبيل المدح، ولكني أحب هذا الوصف على أي حال.

عصام، كعادته، كان قد غادر المنزل. عندما كنّا نعمل في نفس المكان، لم ننجح أبدًا في أن نذهب إلى العمل معًا. مؤكد أن الموظفين تعجبوا من هذا الموضوع. والاكيد أيضًا أنهم قدروا في زوجي تبكيره في الوصول إلى الشركة، وهو مَن كان بمكانة صاحبها، أوليس زوج ابنة مؤسسها؟! لم تنقطع عادته في الذهاب إلى مكتبه مبكرًا حتى بعد تأسيسه لشركة منفصلة منذ شهور قليلة.

لست مدللة ولا أسيء استخدام وضعي، فلا أصل في منتصف النهار مثلًا، بل على العكس من ذلك، أظنني أكون في مكتبي في ميعاد أستطيع وصفه بالمناسب. الأهم بالنسبة لي أنني أعمل بجد ولست مجرد صاحبة الشركة، أو ابنة مؤسسها وأخت رئيسها الحالي. فأنا رئيس القطاع المالي للمجموعة، ولم أتبوأ هذا المنصب إلا بعد عشر سنين من تخرجي في الجامعة الأمريكية قسم المحاسبة. لم أختر تخصصًا سهلًا كما أشارا عليّ، في واحدة من لحظات تمردي القليلة على إملاءات والدي وأخي. صراحة، هي لحظة تمردي الوحيدة على رغبة لهما. أظنهما سمحا لي بها على قناعة أنني لن أكون يومًا مؤثرة في أعمالهما. لم يتصورا أني سأكون ذات نفع لهما. شهادة أحصل عليها لأستكمل مسوغات الزواج لا متطلبات التوظف. من أسباب فخري اليوم، بعد أكثر من عشرين سنة من تخرجي، أن لي دورًا، أستطيع أن أصفه بالمهم، في أعمال العائلة. بيني وبين نفسي أرى أن دوري هو الأهم. تفوقي سمح لي أن أدرس علم النفس وأحصل على بكالوريوس موازٍ فيه. لم أحاول ولو للحظة أن أعمل بمجال علم النفس، ولو حاولت لرفضا واتهماني بالتفاهة في الأغلب. ولعي بالأرقام، وعدم رغبتي في مزيدٍ من تحديهما، جعل اشتغالي بالمحاسبة أمرًا منطقيًا للجميع. لم أندم على ذلك، إذ أصبحت ترسًا مهمًا في ماكينة المجموعة.

في طريقي للمكتب ترددت في عمل مكالمتي اليومية لأمي. لم أجد بي رغبة في الحكي لها عن خلافي أمس مع عصام. ستبدأ في لومي كعادتها ولن تتفهم أسبابي؛ الأسباب التي ما زالت مبهمة في ذهني والتي لم أستطع أن أضع يدي عليها بالكامل. مرة ثم التالية، ومن بعدها التي تلتها أنوي الاتصال بها ثم أعود فأصرف النظر عن إجراء المكالمة. سأؤجل ذلك لحين المصالحة، بل ربما سأتغاضى عن إخبارها بالموضوع برمته. كل مرة أعقد العزم على

عدم إطلاعها على التفاصيل، ثم ما ألبث أن أسرد لها كل ما حدث. ما إن أفرغ من الحكي حتى تبدأ هي في انتقادي والسخرية مني ومن طرق تناولي للأمور.

والسائق يتوقف بالسيارة أمام المكتب، شعرت ببعض الذنب لأنني لم أجرِ المكالمة، فقررت أن أتصل بها حين أصعد. ابتسمت وأنا أدخل المبنى المهيب الذي أطلق عليه المكتب، وهو يضم بين جنباته مجموعة شركات عائلتي التي تقدر ثروتها بالمليارات.

قررت ألا أتصل تليفونيًا بعصام وقت وصولي للمكتب كما اعتدنا. تحاشيت تلك المكالمة التي ستكون باردة. الأفضل أن أصالحه في البيت آخر النهار. مر اليوم بلا أحداث.

في المساء، سارت الأمور هادئة بالمنزل. لم أجد عتابًا من عصام لدرجة أنني شككت إن كان بيننا خلاف حقًا الليلة السابقة. أزعجني قليلًا ما لحظته من توتر في تصرفاته. ظل يرمقني بنظرات لم أستطع تفسيرها حتى شعرت بأن بها شيئًا من الذنب أو الندم لم أستطع تفسيره. لم يطل توتره ولا استمر، فسرعان ما عاد إلى طبيعته الهادئة. أراحني عدم الحاجة إلى محايلته طويلًا كي نتصالح. سعدت بإصراره على أن يُحضر لي شايًا مع بداية حلول الظلام. رفض أن أقوم أنا بذلك. كان قد فاجأني بأنه صرف كل مساعدينا وأعطاهم اليوم إجازة كي نصبح وحدنا. لم أعتد منه التدخل في شئون البيت، ولا رومانسية على هذا النحو. عزوت رغبته في تدليلي لإحساسه بأنه أخطأ في حقي لمّا اختلفنا. لم أعد متأكدة إن كنّا اختلفنا أم لا. غلبتني الحيرة فقررت أن أزيح الموضوع برمته عن ذهني. سأستمتع بدفء وجودي معه، ووحدنا. لا داعي لأن أقلق نفسي طالما الأجواء على هذا الهدوء. حتى قلقي من عدم اتصالي بأمي أو عدم اتصالها هي بي نحيته جانبًا، عازمة على الاستمتاع بجلستنا سويًا.

حين أحضر الشاي أعجبني أنه سكبه في كوبي المفضل. سعدت بتفكيره في تفصيلة كهذه. استمر يحثني على الشرب مذكرًا إياي بأنه حضره خصيصًا لي. لاحظت أنني فقط التي أرتشف ما أعده وأنه مكتفٍ بالتحديق فيّ. عاد التوتر يظهر من جديد على وجهه.

فكرت في أن أسأله عمّا به، ولكني وجدت بلساني ثقلًا وبجسدي خمولًا غير معتاد. حاولت أن أغالب النعاس الذي بدأ يسيطر عليّ لكني فشلت. ثقلت جفوني ومن بعدها رأسي وأصبحت أرى عصام كخيالٍ أو ظل. نظري يزداد تشويشًا وأنا أراه يتجه صوب الباب الذي رنَّ جرسه.

لم أدرِ إن كنت أتخيل؟ أحلم؟ أم أرى واقعًا؟ رأيت رجلين يتقدمان نحوي، شبحين يرتديان معطفين أبيضين. يحاولان الإمساك بي وتقييد حركتي وأنا أقاومهما. شعرت بعصام

وسطهما يمسك بذراعي. شعرت بوخزٍ فيه. ازدادت بي أحاسيس الخدل. حاولت أن أستغيث بعصام فلم يصدر مني صوت. نظرت إليه مستنجدة فأشاح بوجهه عني.

2

أنا أحلم، بالتأكيد. فلا تفسير آخر لما بي من دهشة. ما هذه الحجرة الغريبة التي أفقت لأجد نفسي فيها؟ ثم لماذا أفقت هنا وأنا لا أتذكر أني خلدت للنوم أصلًا؟ كيف انتقلت من بيتنا إلى هنا؟ إذن هو حلم مُصر على عدم مفارقتي. لا قدرة بي على الاستفاقة منه. بدأت في تحسُّس يديَّ ومن بعدها وجهي وكأني أحاول أن أؤكد لنفسي أني في حلم، لكن لم أنجح سوى في التأكد من يقظتي. وددت لو أن بي ذلك البرود الذي طالما اتهمتني به أمي، وعصام أحيانًا كثيرة، وإن كان في مواقف مختلفة، لكن الذعر تملكني. تسارع نبضي وشعرت بالدماء تندفع في رأسي، أكاد أسمع تلاطمها في عروقي. ببطءٍ رفعت نصف جسدي الأعلى لأقوم من على السرير فوجدتني في صراع مع الثقل الخفي الجاثم فوقي. أخيرًا لامست الأرضية التي فاجأتني برودتها فرفعت قدمي مسرعة للحظة قبل أن أعود من جديد وأطأ الأرض محاولة الوقوف. محاولة تلو الأخرى قبل أن أتمكن من الوقوف منحنية ليعيدني دوار من جديد جالسة بخنوع على السرير. مكثت مستسلمة على وضعي والدموع تبلل وجنتيَّ وعينيَّ تدوران في الغرفة المغلقة تتناوبان التحديق تارة في بابها وأخرى في قضبان النافذة المشمسة. سرت في جسدي رعشة وتملكت البرودة أطرافي وأنا شاردة متعجبة من حالي ووجودي في ذلك المكان الغريب. بدأت في محاولة تنظيم أنفاسي كي أدقع الاضطراب الذي بي.

استغربت صوت مفتاح يدور في قفل باب الغرفة، وتبعه تحرك مقبضه إلى الأسفل مصحوبًا بصرير انفتاحه. ثلاث خطوات جعلت زائرتي واقفة قربي، سيدة قصيرة، مائلة للبدانة، ترتدي رداءً وحذاءً أبيض، شعرها مختفٍ أيضًا تحت إيشارب زرقته فاتحة. قسمات وجهها والابتسامة التي علته بثَّت فيَّ شيئًا من طُمأنينة احتجتها. تلعثمت قليلًا وأنا أسألها: أين أنا؟ في المصحة، كان ردها. المصحة؟ لم تُفاجَأ من استغرابي، إذ ظلت مستمسكة بسمتها. جاوبتني بألا أقلق، فالطبيب سيأتي بعد قليل ويخبرني بكل شيء. أعادت توصيتي بعدم القلق عدة مرات.

لم أكن قد لاحظت أن بيدها كوب ماءٍ قبل أن تطلب مني ابتلاع الحبتين التي مدت لي يدها الأخرى بهما. تركت يدها مفرودة بما عليها دون أن أتجاوب مع طلبها. حين لاحظت ترددي نقلتهما إلى يدها التي بها الكوب وأخذت في الطبطبة على كتفي، ومن بعد ذلك مسحت على رأسي برقة. لمساتها مسَّت قلبي وملأتني ارتياحًا كنت بحاجة إليه. لكن ذلك الارتياح خالطه شعور آخر لم أستطع تحديده. شعور يشبه ما اعتدته في وجود أمي. راحة القرب منها، وفي الوقت ذاته قلق من عدم الثقة فيما يُنتظر مني فعله. وجدتني أشد جسدي

وأنا أراجع ملبسي لأتأكد أنه مفرود دون تجاعيد كما تحب. تعجبت. وإن ارتحت، لمّا وجدتني أرتدي قميص نومٍ ناعمًا اشتريته ولم ألبسه من قبل. اطمأننت أنه في حالةٍ جيدةٍ وأنا أمد يدي إلى رأسي، أمرر أصابعي بين خصلات شعري لأمشطها. اعتدلت أكثر في جلستي وقد أحسنت فرد ظهري كما أوصتني أمي مرارًا وتكرارًا، وشخصت عيناي في وجه زائرتي.

- مهدئات بسيطة.. مش أكتر..

قالت وهي تبسط يدها من جديد بالحبتين. للحظة سمعت ذلك الصوت المستكين في ذهني يقول: «اسمعي الكلام».

تجاوبت معها وهي تعيدني إلى رقدتي على السرير وتغطيني بالملاءة قبل أن تخطو ثلاث خطوات جديدة إلى الباب خارجة منه. مرة أخرى رن في أذني صوت المفتاح يُحكم القفل.

حاولت إغلاق عينيّ فظل النوم على جفائه. بي خدر طفيف يلف رأسي لكني منتبهة ومتيقظة. في المصحة! استعدت ما قالته زائرتي التي فارقتني منذ دقائق. أو لعلها غادرت منذ وقتٍ أطول فلم يعُد بي إحساس دقيق بالزمن. لا شعوريًا بدأت في تحسُّس كل جزءٍ في جسدي باحثة عن موضع ألم تسبب في وجودي هنا. وجدت الخدل مسيطرًا على جميع أعضائي فكففت عن البحث. شخصت بعينيّ في سقف الغرفة محاولة من جديد تذكر ما قد يعينني على فهم سبب وجودي هنا، فظلت صورة عصام وهو يمد يده لي بالشاي الساخن تلح عليّ. ناديت بصوتٍ خفيضٍ على عصام فلم يأتني ردٌ. قررت أن أنادي على أمي، فهي بالتأكيد ستعرف كيف تتصرف وتدلني على ما أحتاج إلى معرفته. دمعت قليلًا وبي عتاب على أمي لأنها لم تحاول الاتصال بي. يحزنني أنها لا تقلق حين لا أهاتفها. كان واجبًا عليها أن تحاول الاطمئنان عليّ. هذه عادتها، لا مانع لديها ألا نتصل، أو بالأصح ألا أتصل أنا، لعدة أيام. لكني لا أستطيع الانقطاع عن الاطمئنان عليها يوميًا، حتى لو حاولت. ربما لو اتصلَت لما أصبحت على ما أنا به. استمررتُ في النداء عليها بصوتٍ غير مسموع. لم تجد توسلاتي إجابة. أو لعلها أجيبت، فها هو الباب يُفتح من جديد.

تصدر المشهد داخل غرفتي هذه المرة رجل أشيب، يرتدي بالطو الأطباء الأبيض، وقد تبعه على بُعد خطوة أو اثنتين شابان أحسنا إظهار خنوع طلاب العلم لأستاذهما. بادرني بقوله:

- أخبارنا إيه؟

تعجبت من هذا السؤال الجمعي ممَّن أقابله لأول مرة، كيف لي أن أعرف أخباره لأرد؟ وكيف لي أصلًا أن أرد عن أخباري وأنا كالمختطفة في هذا المكان الذي لا أدري كيف وصلت

إليه من الأساس؟

- هو أنا فين؟

كانت الإجابة التي وجدتها مناسبة لمَن أدركت أن لديه الإجابات.

- حضرتك ضيفتنا هنا في المصحة. هاترتاحي معانا كام يوم وبعدين ترجعي البيت.

- أرتاح من إيه؟ وإيه اللي جابني هنا أصلًا؟

لم يرد فعدت أستجوبه:

- وبعدين مصحة ليه؟ أنا عندي إيه؟

سكتّ لثوانٍ، فأضفت:

- لو سمحت!

نعم، أحب دائمًا أن أكون هادئة ومهذبة في طريقة كلامي. عادة ما أوصف بالأدب الجم، وأسعد حين يلحظ ذلك مَن أتعامل معهم.

بابتسامة كرهتها، أخبرني بأنني في مصحة الأمراض النفسية والعصبية التي تحمل اسمه، فيما أظن. تأكد ظني لمَّا شدد على أنه صاحب ومؤسس المكان.

- يعني حضرتك شايفني مجنونة؟

نطقت بالكلمة رغم كرهي لها، ورغم رفض درجتي العلمية الثانية لمدلولات توصيفها. جاءني رده لطيفًا فهوَّن عليَّ ضيقي:

- العفو يا نعيمة هانم.. كلنا بنحتاج راحة كل شوية كدة. وبعدين التعب النفسي مش معناه جنان لا سمح الله.

سكت لحظة ثم عاد وكأنه يريد أن يطمئنني:

- عصام بيه شاف إنك محتاجة تشرفينا هنا شوية.. ترجعي بعدها بيتك في أحسن حال إن شاء الله.

وكأنه قرر أن يعطيني مساحة لأستوعب اللطمة، التفت خلفه إلى تابعيه، وبدأ في الرطن بالإنجليزية: «قمت بتشخيص الحالة بناءً على سرد زوجها لما أتته من أفعال خلال الفترة الماضية. حالة مزاجية متقلبة ما بين الاكتئاب والانفعال العصبي الزائد. صاحبت ذلك أوهام متنوعة تعبر عن شكها فيمَن حولها واتهامها لهم باتهامات مختلفة. مثلًا اتهمت زوجها بأنه

على علاقة بزميلة مدرسة لم يقابلها منذ عقود. تطورت الحالة وتفحلت فأصبحت تتهمهم بإخفاء أو سرقة أشياء تخصها. ومع ذلك استمرت في التصرف بشكل طبيعي في الحياة العملية والاجتماعية. ستجدان في الملف شرحًا كاملًا للأمثلة التي حُكيت لي بالإضافة إلى توصيفي وتشخيصي للحالة».

أردت أن أقاطعه وأخبره بأني أتحدث الإنجليزية بطلاقة وبالتالي أفهم كل كلمة قالها. لا، لم يكن هذا الدافع في رغبتي لمقاطعته. الحقيقة أني أردت أن أصيح بمَن كان يحدثهما أنه يدعي ويكذب إذ لا أتذكر أيًا ممَّا قِيل. حاولت النطق فلم أستطع. من جديد وجدت جسدي على وضعية مختلفة. تكورت فضممت ركبتيَّ أقرب ما يكون إلى صدري واضطجعت على جانبي كما الجنين. لم تعُد بي قدرة على النطق. كنت كالخالية مني وأنا أنظر إلى الحاضرين بالغرفة كالمتعلقة بسقفها. أتين طفلة شديد الخفوت صاحب بكائي الذي أظن أنهم لم يلحظوه. حاولت الصراخ وأنا أسمعه يشركهما قراره، ومرة أخرى بالإنجليزية: «ستبقى معنا هنا شهرين أو أكثر قليلًا.. علاج دوائي مع جلسات نفسية.. عند نهاية العلاج ستكون مادة ممتازة لورقة أقدمها في اجتماع جمعية علماء النفس البريطانيين القادم».

مادة، ورقة وحالة، أهذا ما آل إليه وضعي؟ فكرت في أن أذكره باليومين أو الثلاثة الذي وعد أن إقامتي لن تطول عنها، فلم يجد الكلام طريقًا من عقلي إلى لساني. ما زلت أشعر بأني أراهم عن بُعد وأنا أراني متكورة على سريري.

صدرت مني صرخة غير مسموعة وأنا أسمع الباب يُحكم غلقه من جديد بعد خروجهم.

3

غالبًا ما يستعر الجدل، فيما يخص الحكي، بخصوص النهايات. لكن لا نسمع مناقشات حول البدايات. فقد تكون النهاية: مفتوحة، مقفولة، سعيدة، حزينة، مفاجئة، أو متوقعة. ولكن لا تنسحب مثل تلك الأوصاف، أو بدائلها، فيما يخص بداية الحكايات. يصبح السؤال هنا: هل البدء بنعمت وأخذها إلى المصحة هو الأفضل؟ مع ملاحظة أن «أخذها» أفضل وصف لما حدث لحين استيضاح الأمور. أم إن هناك أحداثًا أكثر صلاحية كنقاط لبدء قصتنا. البدائل متعددة؛ بداية صعود أبيها سلم الثروة مثلًا، أو ربما ما حدث بينه وبين أمها قبل ذلك. ثم هناك الأكثر معاصرة حين رحل الأب عن عالمنا. لعل تلك اللحظة أكثر مواءمة لما سيتبع من أحداث. ليست لحظة موته ذاتها، ولكن ربما الأكثر مشهدية ودراما ودلالة كان حين استقبل أهله المعزين مساء يوم دفنوه.

ترتيب الوقوف في صدر سرادقات التعازي موضوع لا يؤخذ ببساطة، بالذات إذا كان المتوفى تاركًا وراءه ثروة كبيرة. هكذا بدأ استقبال المعزين، بعد أذان المغرب، وقد وقف سيد متصدرًا أهل المتوفى، وهو المنتظر والطبيعي. إلى جانبه وقف عصام، زوج ابنة المرحوم.. المنتظر والطبيعي أيضًا. ومن بعده وقف ابن سيد الكبير، أنهى خدمته العسكرية قبل أشهر، وبدأ العمل في المجموعة قبل أشهر قليلة. ومن بعد ذلك ابن سيد الأصغر الذي ما زال يدرس في كلية التجارة. لكن هذا الترتيب لم يستمر طوال العزاء.

نعمت كانت قد رفضت أن يكون عزاء السيدات في الجامع أو إلى جانب سرادق الرجال كما أصبحت، أو أملت العادات المستحدثة. أصرت على أن يكون العزاء في بيت الفقيد. كانت تعلم أن كثيرات من أهل «البلد» سيحضرن لتأدية «الواجب» كعادة أهل الأرياف. كانت أيضًا على قناعة تامة بأن ذلك سيكون رغبة الفقيد. جاورتها أمها في استقبال المعزيات، برغم انتفاء العلاقة بينها وبين المرحوم لسنين طالت. وجود الأم لاقى تقدير الحاضرات اللائي تهامسن ليؤكدن أن ذلك من شيم بنات الأصول. أو هكذا بدأ التهامس قبل أن ينتقل إلى حكايات عن قصة الأم والمتوفى، وما اقترفت أو ما يُظن أنها اقترفت. كالعادة علت أصوات النسوة على صوت المقرئ، وتنوعت أنواع النميمة التي تبادلن حكيها. برغم ضيق المقرئ من الأمر إلا أنه اعتاد ذلك كلما علا مقام المتوفى. لم يُبالِ وقد قبض أجره قبل البدء، فاستمر في ترتيله غير عابئ لتصبح قراءته خلفية صوتية للمناسبة. أما أم نعمت فقد جلست في وقارٍ يتسق مع أرستقراطيتها. أرستقراطية دفعتها للهروب من علاقتها بعائلة أبو ابنتها ودوائرها قبل سنوات عديدة. وبرغم نظرة تقزز من بعض مَن أحطن بها في العزاء، فقد تصدرت بأناقتها المشهد وظلت طوال الأمسية محط أنظارهن التي تراوحت ما بين

الإعجاب والحسد والانتقاد.

كما اعتادت، توارت نعمت خلف بريق أمها. برغم أنها ورثت الكثير من جمالها وتعلمت الكثير من أناقتها على يديها، لكنها دائمًا وأبدًا ظِلٌ لها. ليست على كل جمال أمها، إذ يبدو أن تداخل جينات الأب قلل من ذلك، ولكنها دون شك تستحق أن توصف بالجميلة. تلفتت حولها فلم تشك في أنها الوحيدة التي كان حزنها صادقًا ومن صميم قلبها. أو ربما هي الوحيدة الحزينة.

هي أكثر مَن عانى وعاصر مرض والدها الأخير. وهي آخر مَن وقع عليها نظره قبل أن يُغلق عينيه للمرة الأخيرة. لم تدرِ لمَ ألحت عليها ذكرى عمتها وهي تتقبل العزاء. ربما لأن أغلب الحاضرات كُن يشبهنها بالأوشحة السوداء التي غطين بها رءوسهن، أو ربما لأن أغلبهن من بلدة أبيها وعمتها التي ظلا لا يكلان الثناء على محاسنها وذكرياتهما بها ما حييا. كلاهما لم يستطع يومًا، أو لم يرغب، في التخلي عن جذوره. الكثيرون يتكرون أصولهم حين يصعدون ركضًا سلالم الترقي الطبقي كما حدث لأبيها، لكنه لم يحاول فعل ذلك، احتفظ بلكنته وطريقة جلسته وأكله، بل افتخر بذلك وتزيَّد فيه حتى تسبب أحيانًا كثيرة في خجل أولاده من ريفيته كما أسموها.

كما العادة في عزاءات الرجال سرت همهمة مستمرة دون توقف. همهمة بها نوع من التحشم، فلا يرتفع صوت على صوت المقرئ. تأدُب صوري أصبح جزءًا من تقاليد أداء «الواجب».

أغلب الأحاديث اختارت مدارًا واحدًا وإن بدت مختلفة. تبدأ بالترحُم على الفقيد ملحقًا به تعديد لإنجازاته ونجاحاته. المقربون يحكون حكاية أو أخرى يستدعونها من ذاكراتهم، ويضيفون إليها ما يجعلها مناسبة لكونهم في سرادق عزائه. البعض يفضلون حكايات بها مسحة من خفة دم المرحوم، رغبة منهم في جعل آخر ما يذكرونه به ابتسامة. بعد أن تنتهي قصص الصولات والجولات وما بها من عبقرية لا تتكرر، تحدث نقلة في الحديث إلى الوضع الحالي وتوقع المستقبل. الوضع الحالي لأعماله وشركاته وما يتوقعونه من مستقبل لها. هنا يطمئنون بعضهم بعضًا، بالذات المرتبطين اقتصاديًا بالفقيد وأعماله، إن الأمور ستكون على ما يرام. حين يصدرون هذا الحكم تتعلق أنظارهم بعصام بعد أن يشيحوا بنظرهم سريعًا عن سيد.

في أركان أخرى من السرادق، وبأصوات خفيضة جدًا، وأعناق ورءوس تتلفت قبل أن تنطق أفواهها، يتطرق الحديث إلى حجم الإرث الذي سيؤول لسيد، وأخته. أغلبهم لا يستطيع تذكر اسم الأخت رغم أنهم يعرفونه. يقترح قلة أن الرقم عدة مئات من الملايين،

الإعجاب والحسد والانتقاد.

كما اعتادت، توارت نعمت خلف بريق أمها. برغم أنها ورثت الكثير من جمالها وتعلمت الكثير من أناقتها على يديها، لكنها دائمًا وأبدًا ظِلٌ لها. ليست على كل جمال أمها، إذ يبدو أن تداخل جينات الأب قلل من ذلك، ولكنها دون شك تستحق أن توصف بالجميلة. تلفتت حولها فلم تشك في أنها الوحيدة التي كان حزنها صادقًا ومن صميم قلبها. أو ربما هي الوحيدة الحزينة.

هي أكثر مَن عانى وعاصر مرض والدها الأخير. وهي آخر مَن وقع عليها نظره قبل أن يُغلق عينيه للمرة الأخيرة. لم تدرِ لمَ ألحت عليها ذكرى عمتها وهي تتقبل العزاء. ربما لأن أغلب الحاضرات كُن يشبهنها بالأوشحة السوداء التي غطين بها رءوسهن، أو ربما لأن أغلبهن من بلدة أبيها وعمتها التي ظلا لا يكلان الثناء على محاسنها وذكرياتهما بها ما حييا. كلاهما لم يستطع يومًا، أو لم يرغب، في التخلي عن جذوره. الكثيرون ينكرون أصولهم حين يصعدون ركضًا سلالم الترقي الطبقي كما حدث لأبيها، لكنه لم يحاول فعل ذلك، احتفظ بلكنته وطريقة جلسته وأكله، بل افتخر بذلك وتزيّد فيه حتى تسبب أحيانًا كثيرة في خجل أولاده من ريفيته كما أسموها.

كما العادة في عزاءات الرجال سرت همهمة مستمرة دون توقف. همهمة بها نوع من التحشم، فلا يرتفع صوت على صوت المقرئ. تأدُب صوري أصبح جزءًا من تقاليد أداء «الواجب».

أغلب الأحاديث اختارت مدارًا واحدًا وإن بدت مختلفة. تبدأ بالترحُم على الفقيد ملحقًا به تعديد لإنجازاته ونجاحاته. المقربون يحكون حكاية أو أخرى يستدعونها من ذاكراتهم، ويضيفون إليها ما يجعلها مناسبة لكونهم في سرادق عزائه. البعض يفضلون حكايات بها مسحة من خفة دم المرحوم، رغبة منهم في جعل آخر ما يذكرونه به ابتسامة. بعد أن تنتهي قصص الصولات والجولات وما بها من عبقرية لا تتكرر، تحدث نقلة في الحديث إلى الوضع الحالي وتوقع المستقبل. الوضع الحالي لأعماله وشركاته وما يتوقعونه من مستقبل لها. هنا يطمئنون بعضهم بعضًا، بالذات المرتبطين اقتصاديًا بالفقيد وأعماله، إن الأمور ستكون على ما يرام. حين يصدرون هذا الحكم تتعلق أنظارهم بعصام بعد أن يشيحوا بنظرهم سريعًا عن سيد.

في أركان أخرى من السرادق، وبأصوات خفيضة جدًا، وأعناق ورءوس تتلفت قبل أن تنطق أفواهها، يتطرق الحديث إلى حجم الإرث الذي سيؤول لسيد، وأخته. أغلبهم لا يستطيع تذكر اسم الأخت رغم أنهم يعرفونه. يقترح قلة أن الرقم عدة مئات من الملايين،

فيصحح لهم الأغلبية سذاجتهم، مشيرين إلى أن الإرث عدة مليارات. ودون أن تعلو الأصوات، يناقشون حجم مديونية البنوك التي يصفونها بالهائلة. يلكزون بعضهم بعضًا وهم يشيرون إلى مديري البنوك المقرضة التي طالت جلستهم في السرادق ولم يكتفوا بحضور ربع واحد من القرآن كما يحدث عادة، وكأنهم يطمئنون أنفسهم أن الأمور على ما يرام. هؤلاء بالذات، رجال البنوك، يحسنون الشد على يد عصام وهم يسلمون عليه عند خروجهم. رسالة خفية بأنهم سيساندونه، وإن كان عليه هو أيضًا ألا يخذلهم. هم وعصام الأقدر دون غيرهم على حساب صافي الإرث الحقيقي بعد سداد الديون. محاسبيًا قد يُصدم البعض لو عرفوا أن الصافي سالب. سالب وقتيًا إذ سيتحول إلى موجب مع استمرار دورة الأعمال كما يجب والبدء في جني أرباح المشاريع التي لم تكتمل بعد.

في وسط كل هذا كان سيد منشغلًا بشيئين دون غيرهما، أولهما تمام وجاهته. ظل يعدل من وضع رباط عنقه الأزرق الغامق. لا يذكر أنه ارتدى رباط عنق منذ يوم زواجه قبل ربع قرن. اهتم جدًا بأن تكون الحُلة ورسميتها رسالة إلى الحضور بسيطرته على الأمور وتسيده الموقف. نعم، هو السيد الجديد، الرئيس أو الباشا. الباشا في المطلق دون أن يلحق بها «الصغير» كما اعتادوا أن يشيروا إليه في حياة والده.

أما ثاني الأمور التي شغلته، فكان ترتيب الوقوف في مدخل السرادق. قرر أن ابنه الأكبر يجب أن يتلوه في هذا الترتيب وليس عصام. ربما أيضًا من الأفضل أن يقف ابناه قبل زوج أخته. لم يكن يباله ذلك الموضوع لأسباب تخص التقاليد أو القرابة والعصب والنسب وما إلى ذلك. الموضوع بالنسبة له كان يخص ما يخطط له منذ مرض والده الأخير وإخطار الأطباء له ولأخته بأنه لن يقوم منه، وأن نهايته آتية عن قريب.

ظل يشير لابنه بيده، خفية، بأن يأتي ليقف إلى جواره. لم يكترث الولد بإشارات أبيه، واكتفى بهز رأسه، وأحيانًا كتفه، وعلى وجهه علامات عدم فهم المطلوب منه. استمر يشير دون أن ينفذ ابنه طلبه. بعد حين، لفّا يئس من أن يفهمه الولد، تحرك نحوه ووضع يده على كتفه. همس في أذنه: «اقف جنبي.. ده مكانك».

ثم قاده بهدوء إلى مقدمة السرادق. تجهم وجه عصام، وإن استعاد تماسكه سريعًا. استبعد أن تكون مناورة عديله ذات دلالات. يعرف اهتمامه بالتفاهات المرتبطة بالوجاهة الاجتماعية. الأيام التالية ستثبت خطأ استخفافه بما فعله سيد.

4

ما زالت الآراء، والحكايات، متضاربة فيما يخص ما قام جد نعيمة، لأبيها، بفعله مع بداية ثورة يوليو. يستعجب الناس من تخلصه من جزء كبير من ملكياته من الأطيان الزراعية قبل صدور قوانين الإصلاح الزراعي. تخلص من حجم الأراضي المناسب كي لا يقع تحت مقصلة القانون الجديد. يُرجع الرواة ذلك إلى علاقة ربطته بأحد الضباط الأحرار الذي أشار عليه أن يبيع في عُجالة قبل صدور القانون. قليلون جدًا مَن فعلوا ذلك وتجنبوا مفاجأة المصادرة. الثورة كانت فاتحة خير عليه، إذ بعد ما سيَّل أطيانه وجد الفرصة مواتية لشراء عقارات الأجانب. الأجانب الذين كانوا هم الآخرون في عُجالة لتسييل ممتلكاتهم، وهم يسارعون لمغادرة مصر في منتصف الخمسينيات. تحول الجد من صاحب الأفدنة إلى مالك العمارات الخمس في وسط القاهرة. يضاف إلى ذلك عمارة جاردن سيتي التي تردد كثيرًا في شرائها. تردده نبع من خوفٍ دفينٍ من التعامل مع أكابر الحي الراقي. حين قرر شراءها بعد طول تفكير لم يدرك أنه يشتري ذرة ممتلكاته. لم يعرف، رغم مهارته الموروثة في البيع والشراء، أن عمارة في جاردن سيتي، على بُعد خطوات من أهم السفارات الأجنبية في مصر، علامة ورمز لتحول وضعه وأسرته إلى أرستقراط المدينة. صاحب تحوله إلى الملكية العقارية انتقاله مع زوجته وابنه الوحيد، أبو نعيمة، إلى القاهرة. يتعجب الناس من أنه اختار أن يقطن شقة في إحدى عمارات وسط البلد ولم ينتقل إلى عمارة الأكابر كما كان يشير إليها. السبب غير المعلن كان إدراكه أن ليس به قدرة على مجاراة عائلات حي الذوات. فضَّل أن يستمتع بما يجمعه من السكان من أجرة عن أن يشاركهم السكنى. ابنه كان وحيدًا لأن إخوته الأربعة الذين حملت بهم أمه ماتوا جميعًا وهم زُضع.

لذلك حين حصل أبو نعيمة علي البكالوريا وأبدى رغبته في الالتحاق بالكلية الحربية، مبتغى شباب جيل الخمسينيات وبداية الستينيات، صرخت الأم رافضة. لم تنفع معها أي محاولات من الأب والابن لإقناعها. بكت حتى تورمت عيناها واتهمتهم بأنهم يريدون أن تفقد الولد الوحيد الذي سمح الله لها به. أطالت احتضانه كلما استسمحها قائلة إنها لا تريد أن يموت في الحرب. لمَّا باءت محاولاتهم بالفشل المستمر قدَّم الشاب، على مضض، أوراقه لكلية الزراعة. لا أحد يعلم لمَ اختارها، ولا حتى هو، ولكنها بدت اختيارًا منطقيًا وقتها. ربما كانت ما أهَّله له مجموع درجاته البسيط بعد استبعاد الكليات العسكرية.

تزامن تخرُّج الولد، بعد عناء، مع رحيل أبيه وانتقال الثروة إليه. حبَّبت الأم له الوظيفة الميري فسعى إلى أن التحق بأول السلم الوظيفي بوزارة الزراعة والاستصلاح الزراعي. ناسبه جدًا أنه لم يكن مطلوبًا منه عمل حقيقي. مجرد دفع أوراق لمَن يرأسوه وتمهيرها

بتوقيعاتهم. الجميع يتوخى الحذر ويتأكد من شيوع المسئولية. عيشته مع ما توافر له من موارد استحقت وصف أنها «مرتاحة». لم تكن به تطلعات لزيادة الثروة أو الاستثمار. اكتفى بما كانت تدره الإيجارات. المرة الوحيدة التي قرر أن يعيد تدوير أمواله فيها كانت حين اشترى قطعة أرض طرحتها نقابة الزراعيين لأعضائها بالقرب من المتحف الزراعي بمنطقة المهندسين الجديدة. لامته أمه حين أخبرها واتهمته بأنه يبدد أمواله بشراء أرض في منطقة يملؤها الناموس وتتاخم المزارع.

حين أصر على الانتقال إلى عمارة جاردن سيتي في الشقة التي خلت لم تعرف أمه مسببات تمسكه. نزلت على رغبته فأصبحا من قاطني العمارة الفخمة. لاحظت الأم مع النقلة زيادة اهتمامه بمظهره والثياب الجديدة التي اشتراها من محلات سليمان باشا وقصر النيل. البنت الجميلة التي تسكن مع أسرتها شقة الدور الأرضي كانت المحرك وراء نزوحهم إلى جوار السفارات. تحرى عنها فعرف أن والدها أيضًا موظف حكومي، وأنهم وإن كانوا من أسرة راقية، لكنهم من الفرع الأقل ثراءً لهذه العائلة. بالأحرى هم من الفرع الفقير الذي لم يتبقَّ من أرستقراطيتهم سوى سكنى في جاردن سيتي. الارتباط الوحيد المتبقي لرقيهم كان عنوان السكن. لم يُطل في مناوراته وسرعان ما طلب موعدًا زارهم فيه مع أمه ليطلب القرب منهم. ولم يطيلوا هم في الرد بعد ما استعرضوا ما عرفوه عنه من ثراء فلم تستوقفهم قلة أصله كما يسميها أمثالهم من أولاد الذوات. حسبوا فقط أنه سيستطيع أن يوفر للابنة حياة مترفة تتوق لها وتعرف كيف تعيشها وإن لم تتوفر لها سبلها. تردُّد الابنة في القبول أنهاه تقاعس حبيبها، ابن الحسب والنسب، عن التقدم لها. تحجج بأنه ما زال يتحسس طريقه في وظيفته الجديدة بوزارة الخارجية. اعتذر لها أيضًا بأن موارده قليلة وأن عائلته، برغم أنها من ذوي الأسماء الرنانة، لا قدرة لهم على مصاريف زواجه. مثله كمثل كثيرين ممَّن أمموا وصودرت أموالهم فأصبحوا من طبقات الشعب الكادحة، هذا الوصف الذي نجحت الثورة المجيدة في تعميمه على جموع المصريين، إلا صفوة جديدة أرست أسسها. وهكذا بعد النكسة بعامين زُفَّ أبو وأم نعيمة. حدث ما حدث في الزيجة التي لم تطل بعد أن نتج عنها نعيمة.

تمر سنون طويلة قبل أن يظهر عصام في الصورة ليلعب دوره في الأحداث. مهندس شاب طموحه لا حدود له. في بدايات التسعينيات كان هو في منتصف عشرينياته. اكتسب خبرة بسيطة من عمله بإحدى شركات المقاولات. لكنه كان منبهرًا بما يحدث في مصر من طفرة رهيبة في عالم العقارات. يذهل كلما حسب أرباح مَن يبنون العمارات في أرجاء القاهرة. يريد أن يدخل في المجال فتتوقف حساباته عند التمويل اللازم للبدء. هو من أسرة متوسطة الحال، لا هم أغنياء ولا هم معوزون. الموقع الذي يبني فيه عمارة في المهندسين،

كانت تجاوره أرض فضاء اختلفت الأقاويل فيمَن يملكها. يسمع مرة أن مالكها توفي وأن بين الورثة خلافًا، ومرة أخرى أنها لأسرة هاجرت من البلد. فضوله دفعه للبحث عن صاحبها حتى وصل إلى أنه أحد وكلاء وزارة الزراعة، وأنه يعيش في جاردن سيتي.

ظل مزاح أبو نعيمة مع عصام حتى مماته يبدأ بتساؤله: من أين أتى بالجراءة ليزوره ويعرض عليه مشروعه بخصوص أرضه الفضاء بالمهندسين؟ وفي كل مرة يرد عصام بسؤاله: من أين جاءته الجراءة ليوافق على عرضه؟! مهندس شاب يعرض عليه أن يُصمم له ويحصل على التراخيص ويسوق ويبيع عمارة يقيمها على أرضه. يؤكد له أنه لن يضع مليمًا في المشروع، وأنه يستطيع في أي لحظة أن ينهي الارتباط دون أي التزام بتعويض. مقابل ذلك تكون له نسبة ضئيلة من الأرباح المتوقعة. وافق أبو نعيمة وهو لا يعرف أن هذا الشاب سيكون سبب ثروة طائلة لا حدود لها. نجح في تحقيق أرباح مضاعفة من المشروع الأول. ثم توالت المشروعات في تتالٍ مبهرٍ حتى تكونت الإمبراطورية المالية التي تبوأ الأب رئاستها، وكان عصام محركها رغم ضآلة نسبته في ملكيتها. لم يتوقفوا عند الاستثمار العقاري فأحسنوا استثمار عوائدهم في شتى المجالات من صناعة وتجارة، حتى غدوا من أكبر رجال الأعمال في المحروسة. وزادت عروة الارتباط بينهما حين تزوج عصام بنعيمة. زيجة لم تحركها رومانسية ولا ليالٍ مملوءة بالسهد والغرام. زيجة عقلانية منطقية ارتضاها الأطراف وحفظتها العشرة. فقط نقصتها الخلفة بعد أن ضن القدر بها عليهم.

بعد أسبوع من وفاة والده أصدر سيد منشوره الإداري الشهير. قرار بإحالة عصام للتقاعد، وبوأ ابنه، الغر، جميع مناصبه. لم يكن قرارًا عاديًا لعصام. كان سرقة صريحة لكل ما قضى حياته يبنيه.

5

ممكن أفهم الغرض من قرارك العجيب؟

هكذا بدأ عصام حديثه مع سيد، في مكتبه، قبل مرور نصف ساعة من صدور قرار تجريده من مناصبه. قناعة عصام الدائمة ظلت أنه لا توجد مشكلة بلا حل ولا موقف معقد دون مخارج. عاش حياته المهنية مطبقًا تلك القاعدة وأثبت المرة تلو الأخرى صحتها عمليًا؛ لذلك وبعد تفكير لم يطل، قرر أن الأفضل مواجهة سيد ومحاولة التفاوض من أجل حل يقلل الضرر والخسائر التي أصابته.

- الغرض إن ابني يبقى نائب رئيس مجلس الإدارة.. نائب لي.. ممكن أنا أفهم إيه العجيب في كدة؟

- العجيب إنك عزلتني من كل مناصبي.. العجيب إنك ماخدتش رأيي.. والدك الله يرحمه كان بيشاورني في كل حاجة.

- مات الملك عاش الملك يا عصام.. عهد جديد.

قبل أن يجد عصام ردًا، استطرد سيد قائلًا:

- العهد القديم كان بيشاورك في كل حاجة، وكان في الوقت نفسه مجنبني تمامًا.

- بتنتقم يعني يا سيد؟

- أنتقم؟ من إيه؟ ومن مين؟ أنا صاحب المال دلوقتي، يعني صاحب الأمر والنهي.. مش محتاج أنتقم.

- وأنا سبب الثروة والمال اللي إنت دلوقتي صاحبهم زي ما بتقول.

- وخدت المقابل يا عصام.

- مقابل عمري اللي قضيته بابني إمبراطورية؟ من غيري ولا كان ها يبقى في مَلك راح ولا مَلك حل محله.

- ده في تصورك.. في ناس كتيرة شاطرة تعرف تعمل اللي إنت عملته وأكتر.. سيبك من كلام الخطب بتاع عمري وبنيت والكلام ده يا عصام، إنت عايز إيه دلوقتي؟

تساؤل سيد هزه. ماذا يريد؟ ما النتيجة التي يرجوها من هذه المناقشة؟ أدرك أن أي كلام سيقوله لن يثنيه عن قراره. عمَّ يجب أن يتفاوض؟ أصبح هذا هو السؤال الفلح علّمه عالم

الأعمال أنه يجب أن يكون بيده ما يريده مَن يفاوضه كي يحصل على ما يريد. استمرت حيرته: ماذا يريد؟ المال؟ لديه ما يكفل له حياة الأثرياء. لكن ما لديه لا يساوي ما يستحق أن يكون لديه! هذه هي المشكلة. هو مَن أسّس ومَن بنى ومَن طوّر ومَن كبّر.. لكنه كله حرث في أرض غيره. هو صاحب الفضل فيما أصبح سيد يتحكم فيه. هو، دون غيره، مَن جعل أهل نعمت في طليعة أثرياء مصر.

فكر أنه ربما يبحث عن السلطة والمنصب. خطؤه أنه اكتفى بأن يُشار إليه عبر السنين بأنه محرك الأمور والمخطط والمنفذ للنجاحات. نسي، أو اطمأن فتناسى، التخطيط لمثل هذا اليوم. أو ربما حين حاول أن يتدارك الموقف ليؤمّن نفسه كانت الفرصة قد فاتت. معاملة الأب له واعتماده عليه طمأنه أن ذلك سيمتد من بعده. حبه لوالد نعمت غشي بصره فلم يشُك لحظة أن أول ما سيفعله سيد سيكون إقصاءه. جال بذهنه أنه كان بإمكانه أن يطلب أسهمًا وملكية فيما تحقق. في الأغلب كان سيُجاب طلبه. لكنه كان سيظل أقلية. تفكّر في إن كانت أسهم زوجته سبيله ولو لشيء من السلطة. أدرك في اللحظة نفسها أنها لن تقف في وجه أخيها. لا قدرة لها على مواجهته.

ما زال مُصرًا على أن له حقوقًا، حقوقًا مشروعة لا يستطيع أحد لومه إن طلبها. يعلم أن مدخل المطالبة بالحقوق لن ينجح مع الجالس أمامه. تذكر أنها ليست حقوقه وحده. ابنه يشاركه تلك الحقوق. ابنه السري الذي أبدع في إخفاء وجوده حتى الآن. معه ما يكفي ابنه لكن ما يحزنه أن أولاد سيد سيتمتعون بأضعاف أضعاف ذلك. سيتمتعون بما قضى هو عمره يجنيه لهم. سرح وهو يفكر إن كان فعلًا قد نجح في إبقاء زيجته الأخرى وابنه سرًا، أم إنه سر مفضوح فضّل مَن يعرفونه ألا يواجهوه به.

عاد يتفكر في خطوته التالية. ما الذي يستطيع أن يفوز به؟ يواجه مَن لن يكون به شفقة. من كلام سيد وضح أن بداخله ضغائن ورواسب سنين. انتظر عمرًا حتى صرح بها الآن. أبوه أبعده واختار أن يقرب له عصام. ربما كان عليه أن يقترب هو من سيد وأن يصادقه. لم يلعب جيدًا فغدا الانتقام من دوافع سيد.

قرر أن السبيل الوحيد أن يجعل نفسه في موقف هجوم بدلًا من الوضع الدفاعي الذي وجد نفسه به. أطال النظر في وجه سيد قبل أن يرد سؤاله بسؤال:

- إنت، يا سيد، اللي عايز إيه؟

فوجئ بقهقهة سيد. استمر في ضحكه حتى دمعت عيناه ثم بادره:

- اسألني أنا مش عايز إيه.

ظل على صمته حتى أدرك أن محادثه ينتظر فعلًا أن يسأله:

- إنت مش عايز إيه يا سيد؟

- مش عايز شريك يا عصام.. مش عايز حد غيري أنا وولادي يبقوا ملاك في الشركة.

- عايز أسهم نعمت يعني؟

- بالظبط كدة.. أسهم نعمت.

- معاك توكيل منها، انقلهم باسمك.

علت ضحكة سيد:

- والناس تقول عليّ إيه؟ سرقت أختي؟! يرضيك كدة؟!

- خلاص اشتريهم منها.. موضوع يخصك إنت وأختك.

انتهى الضحك وسيطرت الجدية على حديثهما. لم يكن سيد لديه استعداد لأن يشتري أسهم نعمت بسعر عادل. قال لعصام إنه إن كان تعلم منه شيئًا فقد تعلم منه فن إبرام الصفقات. مستعد أن يدفع أقل من نصف الثمن. إن استطاع إقناع زوجته بذلك سيدفع له مائة مليون جنيه، له وحده. ربما يكون في ذلك التعويض الذي يبحث عنه. التعويض الذي يستحقه كما يزعم. استفاض سيد في توضيح أنها صفقة رابحة للجميع. الثمن البخس الذي ستقبضه نعمت كافٍ لجيلين أو ثلاثة من بعدها ليعيشوا في رخاء. وهي لم تنجب فلا حاجة بها للمال الكثير الذي ستجنيه. أما المائة مليون التي سيقبضها عصام فكافية ليؤسس شركته ويصيب نجاحًا هو مَن يملكه لا يشاركه فيه أحد. استغرب أن سيد كرر أن نعمت هي مَن لم تنجب. ساوره شك أنه، في الأغلب، يعرف أن له ابنًا. لم يرتح للابتسامة التي ظلت تطفو على وجهه كلما تطرق لهذا الموضوع.

على مدار الأسبوع التالي لحديثه مع شقيقها حاول عدة مرات أن يُفاتح نعمت في الموضوع. لم ينجح. لم يجد الحجة التي يستطيع إقناعها بها. لا منطق في أن تبيع. لم يصل إلى مرحلة مناقشة السعر وهو يفشل في إيجاد مسببات لجدوى البيع من الأساس. زاد من الصعوبة أنها متخصصة في الحسابات والأمور المالية. ليست متخصصة فحسب، بل متفوقة. تعلم كل صغيرة وكبيرة عن الشركة وقيمتها وأرباحها. لكن الجائزة التي سيجنيها من الصفقة، إن تحققت، سيطرت عليه. لجأ في النهاية إلى مسببات تحوي بعض الرومانسية. طرح عليها فكرة أن يتقاعدا ليستمتعا بالثروة في الطواف حول العالم. نظرتها وهي تسمعه كانت غير مصدقة. تعرف جيدًا حبه للعمل وأنه لن يتقاعد بالتأكيد. تلعثم وهو نفسه غير

مقتنع بما يحاول إقناعها به.

لا يتذكر أنه فشل يومًا في إبرام صفقة. إن تعقدت الأمور أصبح عليه، كما تعود، أن يفكر بطريقة أخرى. خارج الصندوق كما يقولون. الحل دائمًا موجود، والفائز هو من يصل إليه، أو يبتكره. البداية تكون في معرفة مدخلات المعادلة المطلوب حلها. كلما طال تفكيره؛ توصل إلى أن الحل هو أن يصبح المتحكم في أسهم نعمت. حينئذٍ سيكون قادرًا على إبرام الصفقة. لن يبرمها فقط، بل في الأغلب سيقدر على تحسين مردودها. المردود الذي يخصه.

حين جاءته الفكرة أعجبته عبقريتها. كما اعتاد، بدأ في التخطيط. استشار محاميه في القانونيات. وفي الوقت ذاته بدأ في الاتصال بصديقه القديم، الذي أصبح من مشاهير الطب النفسي. يؤمن أنه لا يوجد طلب مستحيل، ولكن يوجد ثمن لكل شيء، حتى المستحيل.

6

قضيت ليلتين شهيرتين في المصحة. ليلتان ما زالتا حديث أوساطنا الاجتماعية برغم مرور شهر الآن على خروجي من هناك. لكنها أوساط تحتفي بالمصائب ولا تمل منها. مصيبة أو فضيحة غدت ملتصقة بي. فضيحة، فضيحتك، فضحتينا، فضيحتنا؛ كل تصاريف الكلمة أصبحت تدوي ليل نهار في ذهني. وإن تفوقت أمي على أصواتي في تنويع استخدامات الكلمة وتطويعها كلما رأتني. أغلب ظني لو أنها هي مَن كانت باتت بالمصحة، لما صاحبتها مشاعر الخزي والعار التي سيطرت عليها منذ خروجي. ما زالت بي حيرة إن كان عصام قد استشارها قبل إقدامه على ما فعل. أخاف أن أسألها فتؤكد إجابتها ظنوني. ترن في رأسي نصيحة صوت مستكين: «اعقلي» صبيحة يوم الإفراج عني، كنت قد فاوضت نفسي على قبول وضعي الجديد. عادة ودربًا اخترتهما لحياتي: قبول المفروض عليّ. ربما إن لم أقاوم سيرضى عني مَن أودعني في هذا المكان ويراجع قراره ليفرجوا عني ويعيدوا لي نسق حياتي الذي اعتدته. حاولت أن ألتمس لعصام مسبباته وتفهمت أني لا بد كنت صعبة المراس في الآونة الأخيرة. كنت متأكدة أنه سيتصل بي ليطمئني ويشعرني بأن فعلته هذه أساسها محبته.

ذلك اليوم بدأ عاديًا. استيقظت وبرأسي ثقل أظنه من الأدوية التي أعطوها لي. أخذت برهة مستغربة الغرفة المستلقية بها قبل أن تصالحني ذاكرتي فأستعيد ما أصبح واقعي الجديد. دمعت عيناي قليلًا وأنا أستسلم لكوني نزيلة المصحة التي اختاروا إيداعي بها. لم يطل انتظاري قبل أن يُفتح باب الغرفة وتدخل عليّ الممرضة إياها وقد حملت إفطاري. أصرت بطيبة أحببتها أن تطعمني بيدها ومن بعد ذلك ناولتني حبوبًا ابتلعتها دون مقاومة، ثم اقتادتني إلى الحمام الملحق بالغرفة لأستحم. استحيت أن أتعرى أمامها، ولكنها لم تبارح المكان فلم أجد مفرًا من تقبل معاونتها. حاجتي للاستحمام، بعد مرور يومين دون ذلك، غلبت خجلي. أحسست بضعف أمام تسيدها للموقف برغم رغبة وأدتها في الصراخ بوجهها أني لست عاجزة. حين انتهينا ساعدتني في ارتداء ثيابي وتصفيف شعري قبل أن تخبرني وهي تغادرني بأن الطبيب سيزورني بعد قليل. أتذكر أنها قالت الطبيب فقط دون أن تسميه.

- أنا عمر حشمت.

لم يُلحق مَن فتح باب غرفتي ووقف على عتبتها اسمَه لقبًا أو مهنة، لكني أدركت على الفور من ردائه الأبيض أنه الطبيب الذي أخطرتني الممرضة بأنه سيزورني.

استمر في وقفته على الباب دون أن يخطو إلى داخل الغرفة قبل أن يدعوني إلى الخروج

معه إلى حديقة المصحة. تبعته في صمت إلى الخارج، وجلست حيث أشار، وقد أعجبني اختياره لكرسيين متجاورين سلطت الشمس عليهما دفئها.

- مرتاحة هنا يا نعيمة هانم؟

لا أدري لماذا احترت في إجابة سؤاله البسيط. بالتأكيد لم يكن استفساره عن راحتي في مكان جلستنا في الحديقة. ربما لم أرد أن أقول له إنني لا أشكو من إقامتي بالمصحة، أو لعل مخاطبته لي باسم نعيمة الذي لا أعتاده أفقدني شيئًا من اتزاني. أردت أن أقول له إني لا أحب اسمي، أو في الواقع أكرهه. بالتأكيد سيؤيد رأيي بأن الأهل يظلمون أطفالهم حين يصرون على تسميتهم، مثلي، بأسماء جدات عفا عليها الزمن. من أجل أن يسعدوا أمهاتهم لحظات، يلحقوا بمثيلاتي أذى نفسيًا لا أول ولا آخر له جراء ما لا يد لنا به. فكرت في أن أطلب منه أن يناديني باسم نعمت مثل أمي وكل مَن يعرفونني. بالتأكيد لن أقترح عليه أن يناديني بناعومي، اسم دلالي المقصور على المقربين من أصدقائي. ناعومي كان الاسم المتسق معي كطالبة في الجامعة الأمريكية وضغوط اجتماعياتها. ثم توقفت عن التفكير فيما يجب أن أطلب منه أن يناديني به. مَن هذا الغريب؟ ولِمَ وجب عليَّ أن أفترض أنه سيحتاج لمناداتي؟ للحظة سئمت استسلامي لما وجدت نفسي به منذ أمس. مللت خنوعي وتقبلي المستمر لكل ما يفرض عليَّ. قررت ألا أرد عليه برغم ما قد يرى في ذلك من عدم لياقة من ناحيتي. أفضل تعبير عدم لياقة عن وصف قلة ذوق، وهو الوصف الأصح لقرار الصمت الذي اتخذته.

استمر منتظرًا إجابتي حتى همست بصوت متردد خفيض:

- مش قادرة أفهم أنا هنا ليه أصلًا؟

وكأني لم أقُل شيئًا، وجدته ينحو بالحديث منحى آخر:

- أنا رجعت من أمريكا من سنة تقريبًا.

وبدأ يحكي لي عن نفسه. تخرج في كلية الطب منذ أكثر من عشر سنوات. سافر إلى أمريكا فور تخرجه وحصل على الدكتوراه في الطب النفسي من جامعة شيكاغو الشهيرة. استبقوه هناك لمَّا عينوه في المستشفى الجامعي بعرض لم يستطع رفضه كما أشار. تفوق في عمله وكان محل رضا رؤسائه حتى وصل إلى منصب لا يصله البعض إلا بعد سنين عديدة. في هذه الأثناء تعرف على لورا، معالجة نفسية تعمل بالقسم معه، وسرعان ما تزوجا. رزق منها بنوح قبل ثلاث سنوات، وكان هذا الطفل أحد أسباب رجوعهم إلى مصر. ابتسم ابتسامة واسعة وهو يخبرني بأن لورا هي مَن أصرت على القدوم إلى أرض أجداد نوح، وأنها

من يوم تعارفهما وهي منبهرة بمصر وتاريخها. برغم معارضته وعدم تحمسه استمرت في الضغط عليه من أجل أن يعيشوا في مصر ولو لفترة، كي يتصل ابنهما بجذوره. تفهم رغبتها في اتصال ابنها بأرض غير أمريكا التي اختلطت دماء أسلافها بها. كثيرون من أهل أهم بلد في العالم لا توحدهم هوية. ضحك وهو يخبرني بأنها نفس الجذور التي كان هو يريد أن يقتلعها. في النهاية استجاب لطلبها على اتفاق أن يعودوا على سبيل التجربة لمدة عام أو عامين على الأكثر.

شدتني قصة رجوعه إلى مصر. أصبحت لديّ أسئلة عدة أريد منه إجابتها: هل هو سعيد بعودته؟ هل تعايشت لورا مع حياتنا الصعبة مقارنة بعيشتهم بأمريكا؟ هل ما زالت زوجته على إصرارها، بعد عيشتها هنا، بوجوب ارتباط نوح بجذوره؟

كدت أبدأ في طرح تساؤلاتي لكني تذكرت حينذاك ما كنت قررته من التزام الصمت احتجاجًا على وجودي في هذا المكان. نعم، وبرغم عدم تمام ارتياحي للأسلوب الذي اخترته للاعتراض، قررت أن أستمر في التمسك به. لو أن أمي موجودة هنا لقطبت بين حاجبيها بلا شك اعتراضًا على تصرفي على هذا النحو، بل ربما نبهتني، معللة في وجود محدثي، بأني قليلة الذوق. وبالتأكيد لن يفوتها، حين تختلي بي، أن ترجع سوء تصرفاتي إلى أن تربيتي بعيدًا عنها لم يراعِ فيها مَن أشرفوا عليها بديهيات الأرستقراطية. وبالطبع كان سيرتسم على وجهها، وهي تسترسل في حديثها المفضل، ذلك التأفف من سلوكيات عائلة أبي وتدني مستواهم الاجتماعي والثقافي، وكيف أنها فشلت في محاولاتها للارتقاء بهم. دومًا وصفتهم بأنهم لم يفلحوا يومًا سوى في ملء بطونهم مثل «الفلاحين» الذي نبتوا بينهم.

استمر عمر حشمت في استرساله وحكيه عن أسرته وحياته في مصر وفي أمريكا. تذكرت ما درسته أيام الجامعة أن ما هو بصدده إحدى طرق التواصل بين المعالجين النفسيين ومرضاهم. هو يحاول أن ينشئ بيننا صداقة وثقة تجعلني مرتاحة إليه ومستعدة لإشراكه فيما أشعر وما أكون قد مررت به على طريق أن أصبح إحدى مريضاته.

مع كل تفصيلة حكاها ازداد انشغال ذهني بالأسئلة التي أصبحت تلح عليّ لأطرحها عليه: هل ندم على عودته؟- هل يفتقد حياته في الغربة؟ ألا يستغرب أن زوجته الأجنبية هي المتمسكة بوجودها في مصر، وهو الذي يريد العودة لبلدها؟

أوشك فضولي أن يتغلب على ما كنت قد قررته من التزام الصمت. وجدتني أقنع نفسي بأن تجاوبي معه قد يكون في الواقع أفضل من سكوتي وعدم تفاعلي. لو أني استمررت دون أن أنطق فالأغلب أن يستبقوني هنا لفترة أطول، لكن لو تجاوبت فبالتأكيد سيكتشفون خطأ دخولي هنا من الأساس، وسيسارعون بالاعتذار وإخلاء سبيلي.

ما إن هممت بأن أفتح فمي لأشاركه الحديث، حتى وجدت الممرضة إياها وقد احتلت جزءًا من الصورة. تسارعت خطواتها وهي تكاد تركض إلى حيث كنّا جالسين. بصوتٍ لاهثٍ به شيء من الصياح هتفت:

- جايلك زيارة.

7

عمر حشمت اندهش حين سمع أن لديّ زوارًا. علا وجهه استغراب للخبر الذي أتت به الممرضة. قطع هو الصمت السائد وهو يتأكد منها:

- زوار لنعيمة هانم؟

هزّت رأسها مؤكدة أنهم بانتظاري عند المدير، قبل أن تمد يدها إليّ كي أقوم وأتبعها. انتفض عمر واقفًا في اللحظة نفسها. وضح أن تفاجؤه تحول إلى فضول. أصبحت بي نشوة؛ فها هو يقيني أن عصام سيعيد حساباته قد صدق. ارتسمت على وجهي ابتسامة وأنا أتوسط الطبيب والممرضة في طريقنا إلى مكتب مدير المصحة.

فتحت الممرضة الباب بعد الاستئذان، وتسمّرت على عتبته مشيرة إليّ بالدخول. في تلك اللحظة طفت ابتسامة ارتياح على وجهي وأنا أتصور كيف سيأخذني عصام في حضنه لحظة دخولي. كنت متأكدة أيضًا أن عصام سيطيل في عناقه لي بعد أن عرف جسامة ما فعل فأتى معتذرًا ليعود بي إلى البيت.

لكني حين خطوت إلى داخل الغرفة لم أجده في انتظاري. المدير الذي عرّف نفسه إليّ أول يوم بأنه صاحب المصحة كان جالسًا إلى المكتب متجهمًا، وأمامه ثلاثة رجال ترتسم الجدية الشديدة على وجوههم. أدركت أن الصمت الذي يسيطر على المشهد لم يكن وليد دخولي، ولكنه سبق ذلك. التفتُّ خلفي فوجدت عمر حشمت في أثري في حين اختفت الممرضة بعد أن أعادت غلق الباب.

بادرني من توسط الرجال الثلاثة المتجهمين:

- أهلًا نعيمة هانم.

حدقت فيه فوجدت في وجهه نوعًا من الألفة وإن لم أستطع التعرف عليه. أضاف معرفًا نفسه:

- أنا محمود عبد الحميد، محامي سيد بك أخوكي.

تذكرته حينئذ، فطالما رأيته في مكاتبنا أثناء زياراته لسيد. استرسل المحامي في كلامه موجهًا حديثه إليّ دون غيري. شرح لي أن سيد عندما عرف بوجودي هنا تقدم ببلاغ إلى النيابة لنقلي إلى المصحة دون إرادتي، واتهم زوجي بالتآمر لفعل ذلك. أسهب في تفنيد بلاغ أخي وأنه أرجع ما أقدم عليه لفرض الحجر عليّ والسيطرة على ثروتي. في لحظة أردت أن أوقفه عن الكلام وأقول له إن ما يقول مستحيل، وإن عصام لا يمكن أن يفعل ذلك. ترددت

وأنا أدرك أنه بالفعل مَن أودعني المصحة. فكرت في أن أدافع عنه بأنه حتى وإن فعل ذلك فمؤكد أن السيطرة على ثروتي، كما يقول، لم تكن دافعه. عصام لديه ما يكفيه ويزيد.

اضطربت، وكلمات محضر وبلاغ واتهام وحجر ترن في أذني. لم يكن اضطرابي من وقع الكلمات وحدها، ولكن من ارتباطها بزوجي. كان عمر حشمت قد أجلسني على مقعدٍ مواجهٍ للمحامي ومَن معه.

حاول صاحب المصحة التدخل في الحديث نافيًا أن أكون نزيلة ضد إرادتي. طلب من عمر أن يعيد على مسامع المحامي تشخيص حالتي، لكن الأخير استمر في توجيه حديثه إليَّ دون اعتبار لما يُقال. عاد شارحًا من جديد أن النيابة قد انتدبت الطبيبين المصاحبين له كي يقوما بتقييم حالتي. لاحظت نظرته الثاقبة في عيني المدير وهو يعلن ذلك. وجدت بوجهه وجلًا واهتزازًا كانا أبعد ما يكون عنهما وهو يعد تلاميذه في أول يوم لي في المصحة بتحضير بحث علمي عن حالتي. توترت وقد شعرت بتوتر كل مَن بالغرفة، ربما ما عدا المحامي الذي علت ابتسامة واثقة وجهه.

عاد الصمت من جديد للمكان قبل أن يقطعه مدير المصحة. كرر من جديد شرح تشخيصه لحالتي وقد تعمد، فيما ظننت، أن يكثر من المصطلحات العلمية اللاتينية والإنجليزية في كلامه. لاحظت تصبُّب جبينه بالعرق كمَن بمأزق. من جديد وضح لي زوال ثقته عنه. وجَّه حديثه إلى الطبيبين المنتدبين من النيابة، اللذين بالغا في إظهار الاحترام له، فاقترنت ردودهما عليه بكثيرٍ من التبجيل.

بعد أن تركه المحامي برهة تدخل بحزم:

ـ الكلام ده مش هايفيد.. إحنا هنا لتنفيذ أمر النيابة.

كلمة أمر النيابة زادت توتر صاحب المصحة، أو ربما جعلت آخر ما به من تماسك يتلاشى، إذ سارع قائلًا:

ـ مفيش داعي للنيابة والشوشرة يا أستاذ.. حضرتك تقدر تتفضل وتاخد الهانم معاك ونقفل الموضوع كله.

فوجئت بانفعال عمر حشمت حين صاح:

ـ الكلام ده غلط يا دكتور.. حضرتك عملت تشخيص وواثق فيه.. إزاي تتراجع عن رأيك؟ يتفضل الزملا يعملوا تقييمهم ونتناقش بعدها.

نظر إليه الأستاذ، كما يسمونه، شزرًا وهو يهز له رأسه كي يسكت. استجاب الطبيب الشاب

لتوتر مديره البادي فصمت. حينذاك انقض المحامي قائلًا:

- لا يا فندم، إحنا هانعمل التقييم لأن تعليمات سيد بك الاستمرار في القضية.. التقييم مطلوب لاستكمال إجراءات التقاضي.

نبرة صوته أصبحت نبرة مسيطرة. نظر إلى صاحب المصحة للحظة قبل أن يشدد:

- وحضرتك متفهم طبعًا إن التقاضي سيشمل حضرتك والمصحة لما نثبت التواطؤ.

لم يعُد خافيًا على الحضور الجزع والانزعاج اللذين تملكا الطبيب الأستاذ من أثر احتمالية اتهامه ومصحته بالتواطؤ. عرض من جديد أن يتركني أذهب معهم دون حاجة لتقييم أو أي إجراءات. مرة أخرى، قوبل عرضه برفض قاطع من محامي أخي.

استسلم عمر ومديره فغادرا الغرفة ليتركاني مع المحامي وطبيبيه ليقوما بالتقييم المطلوب. أول ما فعله المحامي كان أن أجرى اتصالًا. أدركت أنه يكلم أخي وهو يقول:

- اطمئن يا سيد بك، كله تمام.. إن شاء الله نعيمة هانم تكون في بيتها الليلة.

انتظرت أن يطلب سيد سماع صوتي. كنت بحاجة لأن أستأنس بصوتٍ أعرفه. أطلت النظر إلى المحامي آملة في أن يمد يده لي بالتليفون كي أتحدث إلى أخي. فهم ما أردته فسأل:

- حضرتك تحب تكلمها.

لكن جملته التالية أذهلتني:

- حاضر يا فندم.. سلام.

نظرته نحوي كان فيها خجل، أو ربما شفقة، وهو ينهي المكالمة. ثم حول نظره إلى الطبيبين وأومأ إليهما قائلًا:

- مش عايزين نتعب نعيمة هانم.. زي ما اتفقنا التقرير نرجع به للنيابة دلوقتي على طول علشان ناخد قرار وتروح الليلة إن شاء الله.

لم يسألاني شيئًا وانشغلا بمراجعة أوراق جاهزة عرفت فيما بعد أنها التقرير المطلوب. كالعادة سيد قادر على استصدار ما يحتاجه وما يخدم أغراضه. هذه المرة كان المطلوب تقرير بسلامة قواي العقلية والنفسية. صدر التقرير ومن بعده بقليل قرار النيابة بخروجي من المصحة.

حين ركبت السيارة التي أرسلها أخي لتصحبني أغمضت عينيّ وبدأت في استعادة الأحداث المدهشة التي مررت بها في اليومين السابقين. ثم قفز فكري إلى كيف سيستقبلني

عصام حين أعود إلى البيت. سيحاول بالتأكيد أن يدافع عن فعلته. سأخبره بأني متعبة وأتحاشى المناقشة والتوتر ربما يومًا أو يومين. بقدر حزني واندهاشي من فعلته، بقدر ما أردت أن أنسى ما مررت به. تمنيت أن يسقط هذان اليومان من عمري وكأنهما كابوس وانقضى. فكرت في أني سأحتاج مجهودًا كبيرًا أيضًا كي أقنع أخي بالصفح عنه. سأحتاج لمساندة أمي من أجل ذلك.

غفوت في السيارة وصحوت عند توقفها لأجد نفسي أمام بيت أمي.

8

يتصور كثير من الأطباء أن بهم مناعة ضد الأمراض التي يتخصصون في تشخيصها ومعالجتها. أظنني قد وقعت في هذا الفخ، مع أني طبيب أمراض نفسية، ونحن أول مَن رصد تلك المناعة الكاذبة التي تصيب زملاءنا من التخصصات الأخرى. ما زلت مشدوهًا من الهزة العنيفة أو لنقل الرجرجة النفسية التي تملكت، ولا تزال، كينونتي منذ يوم خروج السيدة نعيمة من المصحة. لم أتصور يومًا أني معرض لمثل ذلك، ربما غرورًا من أني مَن أعالج مَن يُصابون بهذه الأعراض. ما زلت غير متقبل ما أدركته ذلك اليوم فيما يخص حالتها. مذهول من أن يَدخلها زوجها المصحة دون إرادتها. لم يحاول حتى أن يعرض عليها الأمر كفكرة قد تكون فيها راحتها. نعم هناك حالات في تخصصنا يضطر الأهل لاتخاذ القرار نيابة عن المريض ولمصلحته. لكن في حالتها لم يكن هناك داعٍ لتلك السرعة، وهو ما أستطيع وصفه بالقسوة في اتخاذ مثل هذه الخطوة. كان من الممكن البدء أولًا في معالجتها من البيت، وإن لزم الأمر إيداعها مصحة، فيكون ذلك بالتشاور معها وبإقناعها. بي شك الآن أنها من الأساس مريضة أو «حالة». أكثر ما أذهلني وهزني كان ما وصفه المحامي، وفي الأغلب عن حق، بتواطؤ صاحب المصحة مع زوجها. في الدول المتقدمة قد يواجه تهمة الاختطاف لو حققت الشرطة في مجريات القضية. دول بها قانون لا يخيف طالما يتحرى المرء ضميره. دول كنت أعيش فيها وتركتها وأنا واعٍ لما أفعل وما أنا مُقدم عليه. لكنني لم أكن أظن أن الاستباحة هنا قد وصلت إلى هذا الحد. ما الذي كان يفكر فيه البروفيسور وهو يخطط لفعلته؟ تخطيط دقيق شمل تخديرها بمعرفة رجاله، ليجلبوها قسرًا إلى مصحته الشهيرة. في الأغلب كان يُسدي خدمة لصديقٍ مشترك أو ربما همست له الأنا بأن صيته الذائع يجعله فوق المساءلة. ربما يُعاني من حالة متقدمة، وفي الأغلب مستعصية، من جنون العظمة. هواجس متباينة تعتريني أصعبها في الوصول لإجابة: إن كنت قد وافقت على العودة إلى مصر نزولًا على منطق لورا ومن أجل نوح أم رضوخًا لـ«أنا» عمر حشمت؟! هل بي رغبة دفينة في استعراض ما ظننت أنني حصلته من علم في أمريكا؟ هل كنت محتاجًا لإثبات تفوقي وسط مَن زاملتهم في مصر قبل سفري؟ الشيء الوحيد الذي وجدت فيه راحتي كان تقديم استقالتي من العمل في المصحة. لم أستطع، ضميريًا، أن أستمر وأنا بي شك بتصرفات صاحب المصحة. مهنيتي لم تُطِق الصمت على ما جرى. أحسست براحة كبيرة وأنا أعطي لهذا المكان ظهري لآخر مرة وأنا خارج من البوابة. سأركز عملي في عيادتي الخاصة مع لورا حتى لو عانيت ماليًا. لاحظت لورا شرودي المستمر وظلت يومًا بعد يوم تستفسر عنّا بي. لم أستطع أن أحكي لها ما حدث. كأن بي خجلًا من عدم معقولية

حادثة السيدة نعيمة. ما زلت أحاول تخطي الأمر وإن كنت واجدًا صعوبة شديدة في ذلك. فكرت في أن أحاول الاتصال بها لعل اعتذاري لها يُقلل من وقع ما تعرضت له. بعد تفكير وجدت في الفكرة مزيدًا من تعقيد الأمور. أصبح أملي الوحيد هو أن تكون الممرضة قد نفذت ما طلبته منها ذلك اليوم، وأن تستجيب السيدة نعيمة.

***

الانتظار هو عنوان حياتي الجديدة منذ عدت من المصحة إلى بيت أمي. في الأيام الأولى انتظرت اتصالًا من عصام فلم يحدث. الحق أني انتظرت زيارة منه. ولكن حين تأخرث خفَّضت سقف التمني إلى مكالمة. كنت متأكدة أنه سيأتي ليصحبني إلى المنزل. قررت أني لن أطيل العتاب وسأرافقه دون تطويل في التمنع. أثناء انتظاري لتحرك الزوج، انتظرت تفسيرًا ممَّن اعتدت أن لديه دومًا التفسير؛ أخي سيد، لكنه، كالعادة، اقتضب في كلامه حين اتصلت به:

- مشغول دلوقتي؟ هاكلمك بعدين.

حتى أمي انتظرت أن تصب غضبها عليّ وأن تلومني على ما حدث، ففوجئت بها صامتة بعينين ملآنتين حزنًا وحسرة. بدا لي أنها قررت أن تتوقف عن التحدث عن الفضيحة كما كانت تشير إليها. ومع هذا الامتناع عن التحدث في ذلك الموضوع توقف من بعده تحدثها معي في المطلق. لعلها المرة الأولى التي اشتقت إلى اتهاماتها لي. أو ربما صمتها هذا هو الاتهام الأكبر. لم يكن بي شك في أني سينالني غضبها بعد هذا الصمت. ما كان عليّ سوى الانتظار، المزيد من الانتظار.

تعالت الأصوات في رأسي يومًا بعد يوم. استأنست بالصوت الرقيق الذي استمر يطمئنني أن كل شيء سيكون على ما يرام وألّا داعي للقلق. أحب النغمة الريفية لهذا الصوت، تجعلني أبتسم. يذكرني بطريقة كلام عائلة أبي. كنت أحاول أن أجعله الصوت الغالب بداخلي، لكنني اكتشفت ألّا سيطرة لي على الضجيج بدماغي.

الصوت اللائم إياه هو ما يدوي في دماغي أغلب أيامي. لوم على أني جعلت الأمور تصل إلى ما وصلت إليه. يؤنبني أني دفعت عصام دفعًا إلى ما أتى. حاولت أن أرد على التوبيخ الذي أصابني، بأني لم أتسبب فيما أقدم عليه. كل هذا بالإنجليزية، وليست إنجليزية عادية، بل بلكنة بريطانية مميزة. لولا ثقل الكلمات لأصبحت مستمتعة بأرستقراطية هذا الصوت. أجد نفسي أحاول الدفاع عن نفسي فأصرخ، بداخلي، أنْ لم يكن هناك داعٍ من الأساس لكل هذا التعقيد. يأتيني الرد أن إنكاري لا فائدة منه. صوت اللوم مُصرٌ على أن رد فعله لا بد وأن

كان نتيجة أفعالي. أحاول من جديد أن أدافع عن نفسي، فتسيل دموعي على وجنتي في صمت مع تصاعد نهنهة نحيب طفلة بداخلي.

يبدأ الصوت لؤلؤًا ثم ما يلبث أن يتحول إلى صوتٍ غاضب. تصرخ فيّ قائلة إني سلبية وإني غير قادرة على أخذ حقي. يومًا بعد الآخر تظل تدعوني إلى أن أنهض من سباتي، وأن أتصل أنا بعصام، وأن أذيقه من غضبي وسخطي عليه. الغضب المدوي الذي يتملك الصوت مزعج للغاية. أحاول حين يملأ سراديب ذهني أن أذهبه فأغلق أذنيّ لكن ضجيجه يستمر بلا هوادة. يزداد الصراخ مطالبًا إياي بأن أتصل بسيد وأصر على أن يفسر لي ما حدث. لا ينقذني سوى الصوت الريفي الرقيق يطمئنني من جديد أن كل شيءٍ على ما يرام. ألجأ إلى مزيد من الانتظار، انتظار أن تنزوي الأصوات، والأمل في أن تحل الأمور نفسها دون تدخل مني.

استمرت الأيام متشابهة بلا جديد: لا اتصال من الزوج ولا الأخ. زادت ساعات نومي وقلّت كميات أكلي. عزوفي عن الأكل أعطى أمي صوتها من جديد، فبدأت معزوفات لوم أني أضر نفسي وأني لا فائدة مني وأنا بمثل هذا الضعف. هربت من وجودي معها بالنوم المستمر، فبدأت هي تطاردني رافضة أن تتركني لحالي.

ثم كان اليوم الذي قررت فيه أن أستسلم لضغط الصوت الغاضب وأن أتصل أنا بعصام. حضّرت ما سأقوله وأعدت عدة مرات ترديده قبل أن أطلب رقمه. تسارعت دقات قلبي وأنا أسمع رنات الهاتف في انتظار أن يرد. استمر قلبي ينبض بعنف حين لم يرد. فكرت في أن أعيد الاتصال لكن ملكني وجع منعني من فعل ذلك. علا بداخلي الصوت الرقيق يطمئنني أنه لا بد لم يسمع رنة الهاتف. لم يمضِ وقت طويل قبل أن يظهر اسمه على هاتفي متصلًا بي. قبل أن أرد شعرت بابتسامة تعلو وجهي. أول ابتسامة لي منذ حدث ما حدث. حاولت أن أستعيد ما كنت قد حضّرته من حديث فلم أستطع. أول ما قلت كان:

- وحشتني يا عصام.

لا أتذكر كل ما قاله، لكني أتذكر جيدًا أنه لم يُتح لي فرصة الرد حين أنهى المكالمة بعد صياح مستمر علق منه بذهني قوله:

- بتكلميني وانتي عاملة لي محضر في القسم عايزة تحبسيني؟ وكمان طالبة الخلع؟! بعد العمر ده؟

انهمرت دموعي وعلا معها صوت بكاء الطفلة بداخلي. أصبحت بي قدرة لم أعتدها على البكاء الصامت ظاهريًا.

«خُلع؟ محضر؟ وحبس؟»

عمّ كان يتكلم عصام؟ كان هذا سؤالي لسيد وأنا أصرخ به أن يترك كل ما يشغله ويرد عليّ. لم يستطع هذه المرة أن يؤجّل رده أمام إصراري. بهدوءٍ قاتلٍ أخبرني بأنه، بمشورة أمي، أعطى تعليماته للمحامي بالاستمرار في محضر ما أسماه «اختطافي»، كي يتعلم الأدب كما قال!

حاولت جاهدة أن أصرخ فيه مطالبة إياه بالتوقف عن العبث بحياتي. أردت أن أعنفه متسائلة عمّن يظن نفسه وهو يخوض في خصوصياتي دون مشورتي. لكني لم أجد إلا التلعثم ولم أستطع من جديد سوى الصمت. أغلقت الخط في عصبية. ما إن فعلت ذلك حتى تذكرت أنني لم أسأله عمّن يظن نفسه كي يرفع بالنيابة عني قضية خُلع من زوجي. أعدت الاتصال به. صحت في وجهه باستفساري. أخذ وقتًا قبل أن يفاجئني برده وينهي المكالمة:

- إنتي باين عليكي مجنونة بجد.. خُلع إيه اللي أنا رفعت لك قضية به.. إيه التخاريف دي؟

9

لا أدري إلى متى ستظل واقعة السيدة نعيمة مسيطرة على تفكيري. أظن أن عقلي الباطن يحاول أن يقدم حسن النية فيما حدث فينفي عمّن كنت أعمل معه شبهات مهنية، مثل التواطؤ أو التدليس. أو ربما شعرت وأنا أتحدث معها ذلك اليوم أن بي قدرة على مساعدتها. أقول أتحدث معها برغم أنها لم تنطق بكلمة. ربما جاءني هذا الإحساس من نظراتها. أتمنى فرصة ثانية أقابلها فيها فأستطيع تشخيص حالتها إن كان هناك حالة للتشخيص من الأساس. هناك دائمًا تشخيص نفسي؛ هذا ما نؤمن به كأطباء نفس. حتى أكثرنا استواءً نفسيًا لا يخلو من الشوائب التي يحسن إخفاءها. ربما لا نحتاج لعلاج أو تدخل، ولكنْ هناك دائمًا أثر أو آخر مطبوع بداخل كل إنسان: ذكرى أو تجربة أو موقف ترك بصمة ولو طفيفة بداخلنا. وحتى إن أنكرنا فلتلك البصمة أثرها على تفكيرنا وطرق تصرفنا وسلوكنا، حتى لو لم نربطها بما نأتيه.

يؤرقني إلى حد كبير ما لا بد وأنها تمر به. أي صدمة أصابتها حين علمت أن أقرب الناس إليها أرسلها عنوة ودون تمهيد إلى مصحة نفسية. محتار جدًا في مسببات فعلتهم. هل أتوا ذلك جراء رغبة حقيقية في علاجها؟ أم إنهم خططوا من أجل أسباب أخرى كما أشار المحامي الذي جاء للمصحة لإخراجها. أي ماديات تستطيع أن تجعل الأهل بهذه القسوة؟ لو أن زوجها قام بتلك الفعلة وحده لتفهمت، دون تقبّل، أن له دوافع أو مكاسب من وراء ذلك؛ لكن ما يحيرني بشدة هو دور أمها فيما حدث. من الملف الذي حضّره «الأستاذ» وجدت إشارة إلى أن أمها متفقة على قرار نقلها. استعجبت ذلك جدًا، فما مصلحة الأم في ذلك إذا كانت المصالح هي ما حكمت الموضوع برمته. لا أدري لماذا احترت من دور الأم بالذات، خاصة أني لا أعرف طبيعة علاقتهما. ما زلت مؤمنًا، فيما يبدو، بمثالية علاقة الأمومة برغم ما شهدته في غربتي من حالات مرضية سببها الرئيسي قسوة الأمهات.

تزداد الحيرة وأنا أسترجع الحالة التي وجدتها عليها. لم يكن بها ما يستوجب وجودها في المصحة. نعم لم يتسنَ لي فحص مطول لها، ولا هي نبست بكلمة يوم التقيتها، لكن الظواهر لم تُشر إلى استعصاء حالتها أو حاجة إلى مثل التدخل الذي حدث. ربما هذا ما يجعل بي فضولًا مهنيًا لمتابعتها والتمعن أكثر فيما بها.

***

ناعومي ونعيمة. هذه هي أسماء الأصوات التي تؤانس دماغي. ثُرى لو عرف القائمون على

المصحة أني أسمع أصواتًا لها أسماء، أكانوا سمحوا بخروجي من عندهم؟

نعيمة هي ألطفهما أو أحنهما عليّ. نعيمة غيري، فأنا لا أعتبر نفسي نعيمة؛ أنا نعمت كما تعودت أن ألقّب من كل مَن حولي. نعيمة هي الصوت الرقيق ذو اللهجة الريفية. لهجة تماثل تلك التي لم يتخلص منها أبي وعائلته برغم ثرائهم الذي صعد بهم إلى قمة السلم الاجتماعي في مصر. ظل أبي يفتخر بلازمة كلامه التي هاجرت معه من قريته في الدلتا إلى القاهرة. أحيانًا كثيرة كنت أخجل من نطقه وسط أصدقاء مدرستي الأجنبية، ومن بعدها زملاء الجامعة الأمريكية. أكاد أقسم إنه كان يتعمد إحراجي أمامهم بتمسكه بتلك اللهجة الريفية حين يتكلم أمامهم برغم تخليه عنها في معظم الأحيان إذا لزم الأمر. تطمئنني آراء نعيمة في أغلب الأحيان. طبيعية وعلى سجيتها ولا أشعر بتكلف منها حين أستمع إليها.

ناعومي من الناحية الأخرى تهتم بالتفاصيل، لا تترك فرصة إلا وتشير إلى أخطائي. أخطاء ملبسي وطريقة جلوسي ومشيتي بالإضافة طبعًا إلى المحاكمات التي تعقدها لي إذا ما وقعت في مشكلة. أخشاها حين يتملكها الغضب. عصبية! لا تتكلم سوى الإنجليزية بلهجة متقنة كأهل بلادها. أعشق لكنتها وأستغربها في الوقت ذاته. لا أدري كيف أتقنتها وأنا تعليمي كله على النظام الأمريكي. لا قدرة بي على نطق الإنجليزية مثلها. أحيانًا تأتي بكلمات لا أعرف معناها! لا بد وأنها مرت عليّ في قراءة أو أخرى لأحد الكتب، ولكني نسيت.

بالتأكيد لو شاركت أحدًا الأصوات التي أسمعها، والأسماء التي أطلقتها عليهم ومناقشاتي معهم لوصموني بالجنون. ولكن أين الجنون؟ أوقن بلا أدنى شك أن الكل لديه أصوات داخلية. حتى أفلام الكارتون يقف على الكتف اليمنى للشخصية مَن يوصيه بعمل الخير، وعلى الكتف اليسرى ذلك الوسواس الذي يخطط للمقالب. والأدباء دائمًا ما يشيرون إلى «صوت الضمير». لم يُتهم أحد ممَّن أنصتوا إلى صوت ضميرهم بالجنون. عمومًا أصواتي تلك تخصني ولا أجد داعيًا لأشرك أحدًا في معرفتها. أحتفظ بها لنفسي لتصبح، كما تصف ناعومي شلة الأصوات، سرنا الصغير.

لا يهمني حقيقة ما سيظن الناس لو حكيت لهم عن الأصوات. ربما لا أهتم لأني لن أحكي لهم. المهم أن هذه الأصوات أصبحت ملاذي وسط الفراغ الذي يستعمر حياتي. قبل ما تسميه أمي الفضيحة، كانت شكواي أني ليست لديّ دقيقة فراغ. طبعًا كنت أبالغ حين أدّعي أن كل وقتي مشغول. لكن كان هناك عملي، وزوجي، وأمي، وأصدقائي. منذ خروجي من المصحة لم أجد قدرة، أو شجاعة، للعودة إلى العمل. أخاف من نظرات ترمقني في المكتب. أخشى تفحصهم لي باعتباري مجنونة أو مختلة. أخشى نظراتهم تلك بنفس مقدار رفضي لنظرات عطف البعض. فكرت في أن أصرخ فيهم يوم عودتي: أنا سليمة. سليمة ولا عيب فيّ. لكني

سرعان ما أراجع نفسي قائلة إنني لو فعلت ذلك سأؤكد شكوكهم في قواي العقلية. الحل إذن ألا أعود. سأستعين بالوقت حليفًا حتى ينسوا قبل أن أرجع وكأن شيئًا لم يحدث. أخاف إن طال غيابي أن يعزوه إلى أن ما سمعوه عني حقيقة.

إحساس الفقد الذي يتملكني فظيع. أشعر بأني لم أعد أملك شيئًا. لا عمل ولا زوج ولا شيء ممّا كنت أعتبره حياتي. حتى أمي لم تعُد تشير إلى الفضيحة. يبدو أنها فصّلت، للمرة الأولى منذ عودة علاقتنا بعد سنين البعد، أن تلجأ إلى الصمت المطبق. رغم دوام شكواي من استمرار لومها لي بسبب، أو بدون سبب، فقد أوحشني ذلك منها. تبوأت ناعومي منصة لومي وحدها. أشعر بأن أمي قد يئست من صلاحي بعد تطور الأمور ووصولي إلى المصحة النفسية. لم تُتح لي فرصة الدفاع عن نفسي ودفع ما اتهموني به. يقتلني شعور بأنها تقبلت أني مريضة نفسيًا. أحيانًا أود أن أصرخ في وجهها قائلة إني حتى لو مريضة، فدورها في علاجي ليس بالصمت والتجاهل. لكنها ليست وحدها، فعصام مقتنع بذلك وإلا لما أرسلني من الأصل. مقتنع حد تخديري من أجل التأكد من حصولي على العلاج. جرحني جرحًا غائرًا وهو يتصور أنه يفعل ما به مصلحتي. تسودُ الأمور في ذهني فأميل لتصديق سيد أن عصام لم يكن غرضه سوى التحكم في ثروتي. لكني أبكي حين أتذكر أنني لم أبخل عليه يومًا. ولا أبي بخل عليه أو رفض له طلبًا. وكلانا فعل ذلك حبًا وبكل سعادة.

لم يبقَ لي سوى أصوات تتناوب عليّ، وزجاجة حبوب المهدئ الذي وصفه لي الطبيب الذي أصرت أمي على أن يزورني يوم عدت إلى بيتها. حبة صباحية وأخرى مسائية يجعلان تشابه أيامي محتملًا. كثيرًا ما أحدق في تلك الزجاجة وأبدأ في تصور لو أني زودت الجرعة. ألن يكون في ذلك راحتي؟ راحة من كل شيء. راحة من رحلة لا أريد الاستمرار بها، والأجمل أنها راحة دون ألم. سأغيب دون تأوه. سأغيب ولن يفتقدني أحد. ستغطي أمي على فضيحة جديدة لي بطريقة أو بأخرى، وهي بارعة في ذلك. وسيرتاح عصام من همي إن كان حقًّا يحمله. وإن كان غرضه ثروتي فستؤول له مثلما تمنى.

حين تراودني هذه الفكرة يرتفع نحيب الطفلة، التي أسميها نوني، في دماغي إلى حدٍّ يصم أذني. أبحث عن صوت نعيمة أو ناعومي فلا أجدهما. يعود من جديد الصوت الأجش. صوت لا أحبه، دائم الظهور كلما كان بي ضعف. ها هو يعلو متحديًا فوق صوت النحيب: «إنتي أضعف من إنك تعملي كدة.. ما تقدريش أصلًا».

أشعر برغبة في قبول تحديه وإثبات أني أقدر. نعم أقدر وبإرادتي أن أفعل ما أريد. أمسك بالزجاجة وأعتصرها في يدي. أفتح الغطاء وأنظر إلى الحبوب الرابضة فيها. أتمم عدها بعينيّ. أعيد عدها مرتين أو ثلاثًا. أمد يدي إلى كوب الماء الذي بجانب سريري. يعيد الصوت

الأجش التحدي، وإن زادت السخرية في نبراته. أبدأ في إفراغ الحبوب إلى يدي. أغلق عينيّ، أتصور الراحة التي أنا بصددها.

10

وكأن تسلسل الزمن حدثت به فجوة. كلما أجهدت ذهني محاولة استعادة ما حدث يتوقف المشهد، وقد أفرغت الحبوب إلى كفي. من بعد ذلك تحتل الفجوة مخيلتي. أطمئن حين أنظر إلى جانب سريري فأجد علبة الدواء محكمة الغلق، وإلى جانبها كوب الماء ممتلئ. أشعر بأني متفرجة على المشهد لا بطلته. أراني أمسك بالعلبة وأرفعها إلى جانب أذني، أرجها بتكرار وتعجل فيأتيني صوت الحبوب تتخبط بداخلها. ما زلت غير مطمئنة فأجدني أفتحها مملية النظر بداخلها أعد بعيني كم حبة رابضة فيها. أرتاح لأنها غير منقوصة. أحاول أن أستدعي أي شعور بما يحدث فلا أجد بداخلي سوى الخواء. لا خوف، ولا ذعر، ولا قلق، ولا حزن. فقط كثير من اللا شيء. ما زلت كمن يتابع مشهدًا لا يخصه عن بُعد. أقوم من على سريري صوب الدولاب فأفتح أحد أدراجه. أمد يدي وأسحب ورقة مطوية بعناية. أعود إلى سريري من جديد وأمسك بمحمولي وأبدأ في إدخال الرقم المكتوب على الورقة.

ثلاث رنات أتاني من بعدها صوت من اتصلت به. شعرت بأني قد ابتلعت لساني. انخنقت الكلمات في زوري لا تريد الخروج. علا صوت من على الناحية الأخرى من المكالمة مطالبًا بردٍّ من المتصل. أخيرًا تغلبت على تلعثمي فاستطعت أن أخبره بصوتٍ خفيض:

- أنا نعمت.. نعمت سيد.

ساد بيننا سكون تام. أدركت أن ما قلته لا بد وأن أصابه بحيرة فعدت قائلة، أو بالأحرى صائحة:

- نعيمة.. نعيمة سيد.

تسارعت دقات قلبي وأنا أنتظر رده، وقد خوى ذهني تمامًا من أي قدرة على مزيدٍ من كلمات. بدأت أتنفس من جديد حين سمعته يرد عليّ بصوتٍ به كثير من الترحاب:

- أهلًا يا فندم.. أخبارك إيه؟

ما استشعرته من ترحاب في صوته فتح مزاليج الكلام المكتوم بداخلي. انسابت الكلمات من فمي بغزارة واستعجال. لم أعهد نفسي ثرثارة لكني انطلقت دون توقف. حكيت عمَّا مررت به الفترة الماضية. تحدثت عن شعوري بالوحدة وعن انفضاض الجميع من حولي. وجدتني أشكو إحساسي الدائم بالفقد، وكيف أشتاق لعصام دون قدرة على التواصل معه. برَّرت عدم محاولتي الاتصال به بالصدمة التي عانيت منها في مكالمتي الوحيدة معه. قُلت له إنني أفكر كل يوم في المحاولة من جديد فتمنعني كرامة مجروحة وخوف من غضبة سيد

التي أخشى التعامل معها. لا أدري لمَ تذكرت أول صفعة صفعها لي أخي حين جاء ذكره فيما أسرد. توقفت لحظة تحسست فيها خدي. عدت من جديد أشرح كيف أن الذكر الأكبر في عائلتنا يُسمى سيد؛ أبي سيد، وجدي سيد، وأخي سيد، وابنه الأكبر سيد. كلهم سادة، قلتها مصحوبة بضحكة لا وصف ولا محل لها. يبدو أني أثرت اهتمامه إذ علّق عمر حشمت قائلًا:

- يعني حضرتك نعمت سيد سيد سيد؟

انتقلت بسمة صوته إليّ فزاد اطمئناني. أجبته بأني لا أعرف كم «سيد» من الممكن إلحاقه باسمي. سعدت أن شعرت بازدياد تبسمه مع ردي. ارتحت أيضًا أنه ناداني نعمت. لا أحب أن أنادَى بنعيمة. مصدر راحتي الأكبر كان أنه لم يتساءل عن سبب اتصالي. وأنا أتصل برقمه حاولت إيجاد سبب ولم أنجح، وبعد أن طالت المكالمة ما زلت مستغربة أني اتصلت، لكني مرتاحة. استقباله لي وتعامله منذ بدء المكالمة أراحني. أحسست بأنني كنت موفقة حين احتفظت بالورقة التي دسّتها في يدي الممرضة يوم خروجي من المصحة هامسة بوجل: «الدكتور عمر بيقولك اتصلي به في أي وقت تحتاجيه».

شعرت بأنه ينتظر إجابة فيما يخص اسمي. بدأت أحكي له أن أبي أسقط لقب العائلة؛ لأنه لم يكن يحب ارتباطه بعمل مؤسسها. «ديان» كان اللقب الذي دفنه أبي. لم يحكِ لي يومًا أسبابه. لكن عمتي، حبيبتي، خفيفة الظل طالما أعادت وزادت في القصة. تهمس بها في أذني وعيناها تدوران في المكان الذي نجلس فيه حتى لا يباغتنا دخول مفاجئ لأبي فتنالنا غضبته. الجد الأكبر، أو ديان، فيما يبدو كان يُقرض أهل قريته حين يصبح لا حل لهم إلا تحمل فوائد ديونه الباهظة. يقرضهم بـ«الفايظ» كما يُطلق أهالي الأرياف على مَن يمتهنون مهنته. تنامت ثروته وشهرته. لا يترك دينًا دون سداد إما نقدًا، أو بانتزاع قيراط، أو جزء من قيراط ممَّن يدين له. كونه أصبح أغنى مَن في القرية لم يخلصه من لقب خلعوه عليه: «ديّان». أسموه «ديان» بدلًا من أن يطلقوا عليه «المفتري» أو «المرابي». غالبًا آثروا السلامة فقرروا التأدب في نعته خوفًا من يوم يحتاجون فيه إلى خدماته. لا أنسى جلجلة ضحكة عمتي، رحمة الله عليها، وهي تفاجئني قائلة:

- إوعي تفتكري إن أبوكي رمى لقب العيلة علشان جدنا كان، لا مؤاخذة، مُرابي!

أول مرة أسمع الحكاية تملكني الفضول منتظرة إفصاحها عن السبب الحقيقي. تباطأت عمتي لتزيد من إثارة القصة. حين علا صوتي مطالبة باستكمال حكيها أشارت إليّ أن أخفض صوتي قبل أن تُفصح قائلة:

- علشان الظابط الإسرائيلي أبو عين واحدة ده اللي كان بيحاربنا في 67.

أبي لم يهتم بأن يكون حفيد مُراب، ولكن وطنيته رفضت أن تحمل نفس لقب عدو الشعب المصري الأول خلال الستينيات والسبعينيات: موشي ديان وزير الدفاع الإسرائيلي الذي اتفقت قلوب المصريين على كرهه. أبتسم وأنا أفكر أن بعد التطبيع مع الصهاينة، ولو فيه فائدة له، لأعاد أبي للعائلة لقبها. وطبعًا كثيرًا ما يساورني شك في أن مؤسس العائلة ربما كان يهوديًا لهذا الاسم.. تفسير يتسق مع چينات أبي العظيمة في التجارة وكل ما يخص الأموال.

شعرت بأني قد أطلت وأنه لا بد، مع ضرورة شعوره بالملل مني، سيظن أني تافهة. صاحب ذلك تأنيب ضمير شديد سيطر عليّ من الصورة التي لا بد وأني رسمتها لأبي في ظن وذهن عمر حشمت. من أجل ذلك سمعتني أطنب في مزايا أبي وكم كنت أحبه. على الخد نفسه الذي ما زلت أشعر بصفعة سيد الأولى عليه سالت دمعة وحيدة. حكيت عن مشاعري نحو أبي والفقد الذي قاسيت منه حين رحل عن عالمنا قبل عامين. وجدتني أسهب في الكلام عن استمرار تطلعي، طوال حياته، أن أكون مصدرًا لفخره، وأنه برغم أنيَ لا أتذكر أنه مدحني يومًا فإن ذلك لم يحبطني. صارحت محدثي بأنني كنت أشعر بأنه يفتخر بي، لكنه لا يعلن ذلك حتى أستمر في محاولاتي لنيل إعجابه. لم أقل للدكتور عمر أني في أغلب الأحيان كنت أشعر بأنني غير ذات أهمية لدى والدي، وأن وجودي من عدمه لم يكن يشكل له مشكلة. لم يكن أبي يهتم سوى بسيد، وطلبات سيد، ورغبات سيد.

maktabbah.blogspot.com

توقفت عن الكلام حين لاحظت أنني في الأغلب قد زدت صورة أبي لدى عمر حشمت سوءًا. ساد صمت غير مريح لأول مرة منذ بداية مكالمتنا. لكنه سرعان ما تدارك ذلك حين قطع الصمت بسؤالي:

- والنهارده كان يوم كويس؟

استمررت في صمتي لحظات، وقد جالت عيناي صوب علبة الدواء التي بجانب سريري. أردت أن أقول له إني لست على ما يرام، وإن يومي لم يكن جيدًا. وددت أن أصيح أني لست بخير. أدركت أني كلمته لأني لست بخير. نعم أنا لست بخير ولا أحد ممَّن حولي يهمه ذلك. أحتاج إلى أن أقول لأحد إن مشاعري متبلدة. لا ليست متبلدة، هي ليست موجودة من الأساس. أريد أن يدلني أحد على طريق أعود من خلاله لأشعر من جديد. لا أريد أن يستمر ذلك الخواء الذي بداخلي. أريد أن أفتقد أمي، وأن أتوق لزوجي، وأن أستطيع أن أقف ضد جبروت أخي. أريد أن أحيا من جديد. أحتاج إلى أن أشعر بكل ذلك، لا أن أدعي أن ذلك ما أشعر به؛ لأن ذلك المنتظر مني.

تسارعت أنفاسي حتى كدت أختنق. تبللت وجنتاي من الدموع التي بدأت في الانهمار

دون قدرة بي على إيقافها. تعالت تنهداتي وأنا أحاول أن أستعيد صوتي لأرد عليه. سمعته ينادي عليّ في جزع مطالبًا إياي بالهدوء. كان آخر ما سمعتني أقوله وقد نويت إنهاء المكالمة:

- حياتي لا لها معنى ولا لازمة.

11

- بتفكري في الانتحار؟

المواجهة! هذا ما توصي به كل دوريات الطب النفسي الحديثة عند التعامل مع مَن يظن المعالج أن لديه أفكارًا انتحارية؛ لذلك كان سؤالي المباشر لنعمت من بعد عبارتها الأخيرة التي وجدتها مليئة ثقلًا وكآبة.

سمعت صوت نفسها العميق الذي أخذته قبل أن ترد عليَّ:

- ومَن منَّا لم يفكر في الانتحار؟ ليس بغرض الإقدام عليه أو تنفيذه، ولكن في الفكرة نفسها. ألم يقُل ألبير كامو: لا يوجد سوى معضلة فلسفية جدية واحدة؛ وهي الانتحار؟! الفصل فيما إذا كانت الحياة تستأهل العيش أم لا، يحوي الإجابة عن السؤال الأساسي للفلسفة.

فاجأني ردها من عدة أوجه. الإنجليزية المقرونة بلهجة أهلها الأصليين التي اختارت أن تجيب بها. ثم العمق الفلسفي الذي استحضرته في إجابتها. وأخيرًا هدوؤها فيما ظننت أن يتسبب سؤالي في اضطرابها. أصبحت أنا مَن آخذ نفسًا عميقًا وأنا أبحث عن رد مناسب للمنحى الذي وجُهت إليه حديثنا. استرجعت في ذهني باقي إرشادات الدوريات التي جعلتني أطرح سؤالي. عليَّ أن أتركها تتكلم وألا أقاطعها. مطلوب أن تبوح بما في صدرها أيًا كان. ما عليَّ سوى الاستماع وجعلها مرتاحة إلى وجود مَن يسمع لها. بكلمات إنجليزية قليلة وافقتها على ما قالته فاستمرت في كلامها:

- موضوع الانتحار مثل معظم أمور البشرية به ازدواجية رهيبة. الأغلبية تفضل تفاديه، إن مسَّ عزيزًا عليهم تحاشوا مناقشته، أو في أكثر الأحيان تعاملوا على أنه لم يحدث. يخفونه أو ينكرونه لأن المجتمع يراه وصمة. وصمة لا تلحق بمَن أقدم عليه فقط، بل تلاحق كل مَن حوله. هنا في مصر مثلًا يعلنون أسبابًا أخرى للوفاة إن استطاعوا، ويستغفرون للمنتحر دون الالتفات لأسبابه. أعلم أن الأديان حرَّمته لكن هناك الكثير من المحرمات يستمر البشر في إتيانها. لا يجب أن يوقفنا هذا عن مناقشة الأسباب والدوافع، ألا تتفق معي؟!

- عندكِ حق.. إنكار الفعلة لا يمحو حدوثها.

وكأني لم أنطق استرسلت:

- العجيب أن الفولكلور الإنساني يحتفي بالمنتحر ويُسبغ عليه صفات البطولة.

- كيف ذلك؟

- خُذ عندك مثلًا، الانتحار على طريقة الهاركيري اليابانية، وكيف يُنظر إليها على أنها شجاعة لا مثيل لها، بل يعدونها من أعلى درجات الشرف. برغم البشاعة التي يحويها تنفيذ هذه الجريمة، يقف المشاهدون مبجلين مَن يُقدم عليها. ولا تقُل لي إن هذا كان في مجتمعات تاريخية؛ لأن العالم كله اختار الاندهاش والانبهار بطياري اليابان وقت الحرب العالمية حين كانوا يفضلون تفجير أنفسهم مع طائراتهم بدلًا من النجاة بأنفسهم. سموهم أبطالًا وكرموا ذكراهم. وما زال المسلسل مستمرًا بالمناسبة. فالجندي الذي يرفض الاستسلام لعدوه وهو يعلم أنه لا أمل في نجاته يُكرَم وينتهي الأمر بإطلاق اسمه على الميادين والشوارع. يدعونا الله ألا نُلقي بأنفسنا في التهلكة، ولكن الشجعان منّا يقدمون على ذلك فلا نسميهم منتحرين ولا نخجل منهم، بل نجعلهم نماذج للشرف والرفعة. لكنهم بالتعريف الحقيقي لفعلتهم منتحرون. وفي الوقت نفسه، وحتى وقت قريب، كانت القوانين تُجرِّم الانتحار. تصور السخرية في أن تُعاقب مَن فشل في قتل نفسه. أي عقاب يمكن أن يردع مَن لم تعُد حياته ذات مغزى؟!

- يعجبني منظورك للموضوع، ولكني لا أتفق مع كل ما تقولينه. واضح أن موضوع الانتحار يشغل بالكِ جدًا.

استرسالها أكد لي أنها أصبحت مرتاحة في التحدث معي وإشراكي هواجسها:

- أتدري يا دكتور أكثر ما يحيرني؟ ولا أريدك أن تظن أني أتفلسف، بما أننا نؤمن بالقضاء والقدر، ونوقن أن لكلٍّ منّا موعدًا محددًا تنتهي فيه حياته؛ إذن كيف نلوم مَن ينتحر أو نحكم عليه وهو في الواقع ممتثل للمقدر له؟ وفي الوقت المكتوب؟ أليس حينذاك هو مجرد أداة؟ لماذا نلومه ونعيب عليه فعلته؟ كلما تفكرت في هذه الإشكالية يُصاب مخي بالشلل فأعجز عن إيجاد موقف مقنع أستند إليه.

أصبحت حريصًا على أن تستمر في الكلام. وجدتها بحاجة إلى أن تُسفع كفن مضى عليها زمن طويل دون أن يُنصت إليها أحد. تعجبت من تبحرها وعمق تفكيرها في موضوع الانتحار واسترسالها في الحديث عنه، سألتها فأجابتني:

- ألم أقُل لك إني خريجة قسم علم النفس بالجامعة الأمريكية؟

سكتت برهة ثم واصلت:

- طبعًا لم أقُل لك، فهذه أول مرة نتحدث. في حديثنا السابق اكتفيت بالاستماع إليك. في المصحة حكيت لي عن عودتك من أمريكا وعن لورا ونوح.

ابتسمت وأنا أعلق:

- جميل أنكِ تذكرين اسميهما.

- لا بد وأني أصبتك بالصداع من ثرثرتي، ولكن هذا الموضوع مثير لاهتمامي منذ كنت طالبة. أذكر أني كتبت بحثًا مطولًا عنه وعن أسبابه ودوافعه والتعامل المجتمعي والفلسفي معه.

ثم صمتت لحظات أحسست بطولها، قبل أن تعاود حديثها، ولكن باللهجة العامية:

- على فكرة.. الرد على سؤالك الأصلي هو إني مش بافكر أنتحر.

ارتحت وبشدة لإجابتها الصاغتة عن السؤال الذي كنت قد نسيت أني طرحته. شعرت بأن مكالمتنا أصبح من الممكن وصفها بالناجحة. استغربتني وأنا أعاود الحديث بالإنجليزية. لم أجد لذلك سببًا. ربما لأني كنت مستمتعًا بلكنتها البريطانية الخالية من الشوائب، أو لعل تدريبي المهني في أمريكا جعلها اللغة التي أفكر بها وأنا أتعامل مع الحالات التي أمامي.

- يعني فكرتي فيه من منظور أكاديمي فقط؟ ألم تفكري في الإقدام عليه؟

بدأت في الرد علي بالعربية. راودني شعور، استعجبته وأنا أستمع إليها. اختفت الواثقة من رأيها وعادت ذات الصوت الخافت المتردد الذي بدأ المكالمة. تلجلجت وكأن سؤالي إجابته فيها فضح لما لا تريد البوح به.

حكت لي عن وقت مرض أبيها الأخير أشار الأطباء إلى ضرورة سفره إلى باريس حيث يوجد أشهر مركز متخصص في حالته. كانت هي من رافقته بعد أن تملص أخوها من ذلك بحجة أنه لا بد أن يبقى لمباشرة الأعمال. حاولت إقناعه بأن زوجها سيقوم بذلك فاكتفى بوعد - لم ينفذه - أن يقوم بزيارات متكررة بين الحين والآخر. الجميع كانوا على علم بأن الحالة ميئوس منها. ومع ذلك قرروا أن يحاولوا حتى ولو كانت محاولاتهم تفضي إلى سراب. يوم وصلا أكد لها أطباء المركز الشهير أن ما تبقى لوالدها أسابيع إن لم يكن بضعة أيام. لم يمض يومان أو ربما ثلاثة إلا وأصبح استمرار حياته معتمدًا على توصيله بأجهزة تُطيل بقاءه ميكانيكيًا. أسهبت في وصف المشاعر التي لاطمتها حينذاك. لعنت العلم الذي يمد في مشقة الإنسان دون داعٍ.

أيقنت أن كلماتها تصلني من وسط دموعها. لم تنجح في كتمان نحنحة بكائها وهي تحكي عن مشاعرها في تلك الفترة. وصفت كيف كان أبوها ينظر إليها وقد فقد كل

قدرات التعبير ما عدا ما باحت به عيناه. العينان اللتان طالما أدخلتا الخشية والتبجيل في قلوب الناظر إليهما أصبحتا ضعيفتين واجلتين. قرأت في نظراته توسلًا أن تُنهي شقاءه. فاجأتني بقولها إن فكرة الانتحار سيطرت عليها في تلك اللحظات. ليس انتحارها، ولكن انتحاره هو من أجل خلاصه. كانت متأكدة أن أباها لو استطاع لنفذ ذلك دون تردد. ثقتها في قوته حين كان به عنفوان، جعلتها متأكدة أنه كان سيفعل ذلك لو استطاع. احتارت إن كان العالم قد يسمح لأحد أن «ينتحر» بواسطة مَن يحب. وجدت نفسها تفكر فعليًا في معاونته على ذلك. مرة تلو الأخرى تخطط لفصل الأجهزة عنه فيمنعها أنها إن فعلت ستكون قاتلته. فاوضت الأطباء فأبوا أن يفصلوه، معللين ذلك بأنه نظريًا ما زالت لديه فرصة. واجهتهم بما سبق أن أخبروها به من محدودية ما تبقى من عمره، فأشاحوا بوجوههم عنها. كانت وحيدة وضعيفة، ومَن اعتاد أن يكون سندها ملقى أمامها. صاحب الهيبة والمهابة غدا كومة من العظم مكسوة بالقليل من اللحم، وهي عاجزة عن فعل الشيء الوحيد الذي فيه راحته.

تقطع كلامها وهي تسرد ما طبع في ذهنها من ذكريات ما قبل رحيل أبيها. اغرورقت عيناي بالدموع حين تغلب صوت بكائها على قدرتها على استمرار الحكي. تذكرت فقداني لأبي ومن بعده أمي وأنا في الغربة. بحثت عن كلمات أهدئها بها فعصاني لساني. بصوتٍ خفيض، ملتاع، وبكلمات متقطعة، وصفت لحظة فراق الحياة. سمعت صوت قلبها حين حكت كيف تناوبت دقاته ما بين لوعة فراق ظنت أنها جهزت لها نفسها، وارتياح وهي ترى وجهه وقد تخلص من الألم وسكن في سلام. راوغتني الدموع التي حاولت حبسها فوجدت وجهي وقد غرق في البلل. ساد الصمت المكالمة التي كانت قد طالت كثيرًا جدًا عمّا توقعنا حين بدأناها.

12

لم أترك تفصيلة دون أن أمعن التفكير فيها. فكرت وخططت لكل شيء مرة ومرتين وثلاثًا قبل أن أقدم على فعلتي. رحبت أمي بفكرة ذهابي لمقابلة محاميها الخاص. تطوعت هي لترتيب الموعد. لعبت على وتر الموضوع الذي يقلقها فلم أحتج إلى تبرير سبب خروجي. أقنعتها بأني سأمُر على الشركة لألملم بعض الأوراق التي قد يحتاجها لقائي بالمحامي. اتصلت بمساعدتي وطلبت منها تحضير ملف به مستندات تخصني، وأخبرتها بأني سأرسل لها سائقي ليأخذها منها. هكذا سيكون معي ملف آخذه للمحامي.

احترت قليلًا وأنا أنتقي ثيابي. بعد تردد اخترت بدلة كحلية ومن تحتها قميص أبيض. ملابس تناسب يوم عمل. انتقيت حقيبة وحذاءً بُنيين شانيل كنت قد اشتريتهما في آخر زياراتي لباريس. قررت أن أتبسط في الحلي فتعمدت ألا أرتدي سوى عقد وسوار وحلق بولجاري من الذهب ليس بها فصوص. اكتفيت بدبلتي الألماس وتركت خاتمي السوليتير حتى لا يشعر مَن أقابله بتكلف من ناحيتي. لملمت شعري ذيل حصان. قبل أن أغادر أعجبني ما رأيت من بساطةٍ حين راجعت المرآة. ثم ودعت أمي في هدوء وانطلقت إلى موعدي.

حين وصلت إلى العنوان الذي لم أدونه على ورقة، ولكنني حفظته، جعلت السائق يتوقف بي على بُعد عمارتين أو ثلاث من وجهتي. حين ترجّلت من السيارة ظللت واقفة في مكاني حتى غادر السائق ليأتيني بالأوراق من الشركة. بخطواتٍ مترددةٍ سرت في اتجاه العمارة التي حان موعدي بها. لحظات طويلة وأنا أفاوض نفسي في الدخول من عدمه. لو رآني أحد ستكون فضيحة جديدة. أو تأكيدًا للفضيحة الأصلية. عاد من جديد تناوُب الأصوات عليّ.

- جبانة ومش هاتدخلي.

- إنتي مش بتعملي حاجة غلط يا نعمت يا حبيبتي.

- كل اللي إحنا فيه من تحت راسك إنتي.

وعلى خلفية كل ذلك، علا صوت أنين الطفلة. لم تكن تبكي، ولكني أدركت أنها محتارة لا تدري ما الصحيح ولا ما علينا فعله. قررت أن أسمع كلام الصوت الطيب المستمر في تشجيعي. صعدت إلى الدور الذي به عيادة الدكتور عمر حشمت. دون تردد ضغطت على جرس الباب. قبل أن يعاودني شك فيما أفعل كان الباب يُفتح.

- أهلًا نعمت.

قالتها بابتسامةٍ واسعةٍ، ونطق العين في اسمي يراوغها متضامنًا مع ملامحها، ليفشي

أجنبيتها. عرفتها من كلامه عنها فرددت:

- أهلًا لورا.

أعجبني نسق العيادة على صغر حجمها. صالة استقبال صغيرة مفروشة وكأنها صالون منزل. الأثاث عبارة عن مقاعد مريحة ألوانها متناسقة مع الحوائط المدهونة بتدرجات زاهية من اللون الأخضر. على ثلاثة من الحوائط الأربعة، غلقت لوحات فنية لاحظت أنها أصلية. لفت انتباهي المجهود المبذول في الاختيارات. كل قطعة وكل لون مدروس بعناية فنتج عن ذلك، في النهاية، تلك الأناقة برغم البساطة. من الصالة، التي انضم إلينا فيها الدكتور عمر ليستقبلني، رأيت أبوابًا لثلاث غرف. على الأولى كُتب اسمه، وعلى الثانية مكتوب: لورا حشمت، في حين لم يكن هناك اسم على الثالثة. طالما أثارت اهتمامي فكرة الغربيين في تغيير اسم الزوجة لتحمل اسم زوجها. كل زيجة بالنسبة لهم نواة جديدة لأسرة يستحق مؤسساها أن يحملا اللقب نفسه. لكني أفضل أن يظل لقبي ما مرره لي أبي، ذلك هو الأصل الذي أحب التمسك به. حتى لو أن في حالتي هذا الأصل ليس إلا متوالية من اسم سيد.

لم تطل وقفتنا بعد أن دعاني عمر إلى مكتبه وتركنا لورا لنبدأ جلستنا.

***

نعمت سيد، امرأة في منتصف الأربعينيات. من أسرة ثرية وواضح أنها على درجة من الرقي. وجهها مريح في العموم، ومن الممكن وصفها بالجميلة، وإن كان جمالها هادئًا وليس صارخًا. شعرها بني داكن متناغم مع عينيها العسليتين ذواتي التدويرة الملفتة. أنفها قصير ومستقيم، وابتسامتها، حين تزين وجهها، تكشف عن أسنان بيضاء معتنى بها. من الواضح اهتمامها بمظهرها ودقة اختياراتها لثيابها. أستطيع أن أضيف أيضًا أن قوامها ممشوق دون أي ترهلات تصيب المرأة المصرية في سنها. غالبًا تمارس الرياضة بانتظام. لورا تراها رائعة الجمال. أتفهم هوس زوجتي بخمرية المصريات وتقاطيعهن الفرعونية كما تسميها. ونعمت يثبت شكلها، بما لا شك فيه، أنها من نسل الفراعنة. في رأيي أنها جذابة إلى حدٍّ ما، ولكنها ليست كما تصفها لورا. أول تعارف لنا كان في المصحة قبل تركي العمل بها، ثم تلا ذلك مكالمة طويلة كانت أثناءها في حالة قلق أقرب للفزع. أظنني نجحت في التعامل مع مكالمتها مما نتج عنه نجاح آخر بموافقتها على زيارتي في العيادة لنبدأ أولى جلساتنا. تعاني بلا شك من أعراض اكتئاب. لكني مبدئيًا أرى أن اكتئابها عَرَض لحالة نفسية تحتاج عدة جلسات قبل حسم تشخيصها.

***

أجنبيتها. عرفتها من كلامه عنها فرددت:

- أهلًا لورا.

أعجبني نسق العيادة على صغر حجمها. صالة استقبال صغيرة مفروشة وكأنها صالون منزل. الأثاث عبارة عن مقاعد مريحة ألوانها متناسقة مع الحوائط المدهونة بتدرجات زاهية من اللون الأخضر. على ثلاثة من الحوائط الأربعة، عُلقت لوحات فنية لاحظت أنها أصلية. لفت انتباهي المجهود المبذول في الاختيارات. كل قطعة وكل لون مدروس بعناية فنتج عن ذلك، في النهاية، تلك الأناقة برغم البساطة. من الصالة، التي انضم إلينا فيها الدكتور عمر ليستقبلني، رأيت أبوابًا لثلاث غرف. على الأولى كُتب اسمه، وعلى الثانية مكتوب: لورا حشمت، في حين لم يكن هناك اسم على الثالثة. طالما أثارت اهتمامي فكرة الغربيين في تغيير اسم الزوجة لتحمل اسم زوجها. كل زيجة بالنسبة لهم نواة جديدة لأسرة يستحق مؤسساها أن يحملا اللقب نفسه. لكني أفضل أن يظل لقبي ما مرره لي أبي، ذلك هو الأصل الذي أحب التمسك به. حتى لو أن في حالتي هذا الأصل ليس إلا متوالية من اسم سيد.

لم تطل وقفتنا بعد أن دعاني عمر إلى مكتبه وتركتنا لورا لنبدأ جلستنا.

***

نعمت سيد، امرأة في منتصف الأربعينيات. من أسرة ثرية وواضح أنها على درجة من الرقي. وجهها مريح في العموم، ومن الممكن وصفها بالجميلة، وإن كان جمالها هادئًا وليس صارخًا. شعرها بني داكن متناغم مع عينيها العسليتين ذواتي التدويرة الملفتة. أنفها قصير ومستقيم، وابتسامتها، حين تزين وجهها، تكشف عن أسنان بيضاء معتنى بها. من الواضح اهتمامها بمظهرها ودقة اختياراتها لثيابها. أستطيع أن أضيف أيضًا أن قوامها ممشوق دون أي ترهلات تصيب المرأة المصرية في سنها. غالبًا تمارس الرياضة بانتظام. لورا تراها رائعة الجمال. أتفهم هوس زوجتي بخمرية المصريات وتقاطيعهن الفرعونية كما تسميها. ونعمت يثبت شكلها، بما لا شك فيه، أنها من نسل الفراعنة. في رأيي أنها جذابة إلى حدٍّ ما، ولكنها ليست كما تصفها لورا. أول تعارف لنا كان في المصحة قبل تركي العمل بها، ثم تلا ذلك مكالمة طويلة كانت أثناءها في حالة قلق أقرب للفزع. أظنني نجحت في التعامل مع مكالمتها مما نتج عنه نجاح آخر بموافقتها على زيارتي في العيادة لنبدأ أولى جلساتنا. تعاني بلا شك من أعراض اكتئاب. لكني مبدئيًا أرى أن اكتئابها عَرَض لحالة نفسية تحتاج عدة جلسات قبل حسم تشخيصها.

***

أول ما قلته لعمر كان إني لم أخبر أحدًا بموعدي معه. لا أدري لماذا وجدت ذلك مهمًا. حين أطلعته على ذلك تفكرت أني، حتى لو أردت، لما وجدت أحدًا أطلعه على ذلك. سكت قليلًا.. فلم أكن متأكدة ما المنتظر مني في جلسة مثل هذه؟ هل مطلوب أن أتكلم أم أنتظر أن أسأل لأرد؟ كلام كثير أحتاج أن أقوله. لا أدري إن كان المفروض أن أسترسل أم إن الأصول أن أنتظر وألا أثرثر. وجدتني أحكي له عن ترتيباتي لزيارته، وكيف أحسنت التخطيط لها. لم يقاطعني حتى انتهيت ليسألني:

- الإنجليزية أريح لكِ؟

استغربت سؤاله، إذ لم ألحظ أني استزدت في التحدث بالإنجليزية. ربما كلمة هنا وأخرى هناك لا أكثر. فوجئت لمًا أبدى إعجابه بطريقة نطقي. أكيد لا أتكلم مثل الإنجليز كما أشار. لهجتي ربما أقرب للأمريكية بحكم تعليمي المدرسي والجامعي وشغفي بأفلام هوليوود. لم أتوقف عند تعليقه واستمررت في حديثي. موعدي التالي ربما كان يشغلني، فوجدتني أحكي له عن موضوع التوكيل. التوكيل الرسمي العام الذي بيد سيد. توكيل أصدرته منذ سنين بتعليمات من أبي:

- تروحي الشهر العقاري تعملي توكيل ليا، وتوكيل لسيد.

maktabbah.blogspot.com

هكذا بدون مسببات ولا شرح، تعليمات نافذة فقط. الآن تصر أمي على أن أقوم بإلغائه. سايرتها طبعًا فهي دائمًا تصر على الأصلح لي. لكني أخشى غضب سيد متى عرف. لن يكون غضبًا عاديًا، سيكون انفجارًا بركانيًا. لو أني أمامه لحظة سماعه الخبر، ربما لن يتوانى عن مدّ يده عليّ. لا أتذكر إن كان قد قلّل من ضربي مع بداية ظهور أمي من جديد في حياتي أم لا. يقاطعني الطبيب الجالس أمامي لأول مرة:

- رجوع ماما؟

أتوقف عن الكلام. أشعر بحمرة الخجل تعلو وجهي. بي حرج أن أحكي له. لا أريده أن يسيء الظن بها. كانت عندها أسبابها. لا بد وأني كنت طفلة متعبة لتتركني. لا أتذكر بدقة ماذا حكيت وأي تفاصيل تركت. قُلت إني لم أعرف أمي عن قرب إلا على كبر. معرفتي بها منذ تركتني طفلة في الثالثة وحتى عودتها الأولى، وأنا طفلة في السادسة، ضبابية. أسارع فأنكر أنها تركتني. تركت أبي لخلافاتها معه، لكنها لم تتركني. ذاكرة الطفلة، ذات السنوات الثلاث، بها بقايا مشهد أبي وهو يشير إليّ وأنا واقفة أبكي ويقول لها:

- علشان خاطر البنت دي.. حرام عليكي.

المشهد الوحيد العالق في ذهني الذي يجمع بين أبي وأمي، والمشهد الوحيد الذي أتذكره

لأبي يستجدي أحدًا. يعطي أوامر ولا يطلب، هكذا كان. لا أظنهما تجمعا أبدًا من بعد ذلك. حضرت أمي جنازته ودفنه، ولكنه لم يكن حاضرًا. لا بد وأنه أحس بوجودها.

- هي تهمها مصلحتي.

أدافع عنها وأنا أشرح لعمر حشمت إصرار أمي على أن ألغي التوكيل. طوال عمرها تهمها مصلحتي. حتى حين تركتني وراءها كان ذلك تضحية منها ومن أجل مصلحتي. كانت متأكدة أن أبي سيحسن رعايتي، هكذا قالت.

- سابت بابا.. مش أنا!

أعود وأشركه في قلقي فيما أنا مقدمة عليه. سيد ليس سهلًا ولا يقبل التحدي، بالذات مني. سأشاور المحامين قبل أن أقرر. كم أتمنى لو أن عمتي ما زالت موجودة. ليست بأناقة ولا أرستقراطية أمي، ولكن لم ينتقص ذلك من قوة شخصيتها وعزيمتها. على سجيتها دون تكلف وذات ذكاء فطري غير عادي. قاطعني الطبيب مرة أخرى:

- تفتكري لو موجودة كانت تنصحك بإيه؟

- كانت هاتحميني من سيد.

استغربت حيرته. فعمتي كانت الوحيدة التي لا يقدر عليها سيد. منذ وفاتها عاد من جديد لا حدود لصلفه وصفاقته. ما زال عمر ينظر إليّ في حيرة. قررت أن أشرح له:

- ما هي عمتي تبقى أم سيد.

13

«بص يا سيدي».

حين تبدأ نعمت حديثها بهذه الجملة أبتسم على الفور أبتسم لأني أوقن أن ما سيتلو ذلك من حديثها لن يخلو من خفة دم. تسترسل عادة في كلام تغلفه لكنة أهل الريف. ليست لهجة بها ثقل، ولكنها مختلفة. مختلفة وواضحة في الوقت ذاته. أذهل في كل مرة تبدأ النطق بهذه الطريقة. ذهولي أظنه راجعًا لعدم توافق ما أسمعه مع ما أراه أمامي من أناقتها المتناهية. أكاد أضحك وأنا أفكر فيما سيصيب لورا من حيرة وأنا أحاول بعد الجلسة شرح ما قالته نعمت. لخبطة زوجتي تصل ذروتها حين تستخدم نعمت الأمثال الشعبية في حديثها. حين استغربت وصفها مَن ظننته أخاها بأنه ابن عمتها، بادرتني في دهشة وكأني غافل قائلة:

*- مش اللي يتجوز أمي أقوله يا عمي؟*صمتت وكأنها تستعذب عدم فهمي، قبل أن تبادرني مقهقهة:

- يبقي اللي تتجوز أبويا أقول لها يا عمتي.. صح كدة واللا لأ يا خويا؟!

***

اليوم زيارتي الخامسة لعيادة عمر في أسبوعين منذ بدأنا. طلبت من السائق أن يقف أمام العمارة، وحين نزلت لم أتلفت خلفي، بل مشيت بخطوات ثابتة نحو المدخل. قلبي خلا من الارتجاف الذي اعتدته كل زيارة وأنا أخطو إلى الداخل. ابتسمت وأنا أقرر أن، في الأغلب، الوقت قد حان لأعترف لأمي بمقابلاتي للطبيب النفسي. اعترافي سيخفف من وطأة توجسي وقلقي قبل كل زيارة، ولن أستمر في اختلاق أعذار، أو أكاذيب لخروجي.

أرتاح في جلساتي مع عمر. ولورا التي انضمت إلينا آخر لقاءين. لقاءات وصف أفضل من جلسات. أشعر بأني مع صديقين. أعجبتني إجادتها للغة العربية. أصرت، كما حكت، على أن تأخذ دروسًا مكثفة عندما استقروا في مصر. استأذنني عمر في حضورها ولم أجد عيبًا في ذلك.

يدهشانني أحيانًا بكم المعلومات التي أصبحا يعرفانها عني وعن حياتي. أحاول أن أتذكر إن كنت حكيت لهما كل تلك التفاصيل. أؤكد لنفسي أني لا بد وأن أكون مَن حكيت لهما، وإلا فكيف لهما أن يعرفا. أتوه وأنا أبحث في دهاليز رأسي عن وقت شاركتهما تفصيلة أو أخرى، أحيانًا.

عمر ولورا الآن يعرفان جيدًا ما أُطلق عليه جغرافية عائلتي، وإن كنت غير متأكدة إن كنت قد أسهبت في الحكي عن عمتي بالذات. هل قُلت لهما إنها ليست عمتي بالمعنى الحرفي للكلمة؟ هي ابنة عم أبي، أو لعلها ابنة ابن عم أبي. في الآخر هي ابنة لذكر من ناحية جدي لأبي. في عُرفنا أي ابن عم لأبي هو عم، لا يلزم أن يكون شقيقه ليحظى باللقب. الأكيد أنها مولودة في الفرع الأقل ثراءً من العائلة، أو لنقل الفرع الفقير حتى تسمي الأشياء بأسمائها. لا داعي لأن أتأدب وأحسن اختيار ألفاظي وأنا أفكر.

تيتمت وهي تخطو أولى خطوات مراهقتها. راح أبوها وأمها في حادث سيارة. أخوها الوحيد كان مجندًا في الجيش فأصر جدي على ضمها لأسرته. تصرُّف جدي لم يكن مفاجأة لأحدٍ بقدر ما كان شهامة معتادة، من أهل بلدهم، في مثل هذه الظروف. انتقالها لبيتهم كان نقلة حضارية لها حين «نزلت» إلى القاهرة التي لم تكن قد خطتها قدماها من قبل. حين كانت تستعيد ذكريات تلك الأيام، كانت تقول لي إنها استمرت في الدعاء ألا يُرجعها أخوها إلى قريتهم حين ينتهي تجنيده. ثم يلي ذلك عادة حزن حملته في قلبها على أخيها الذي انتهى تجنيده باستشهاده. أعرف، رغم أنها لم تُسر لي بذلك يومًا، أن جدودي حين ضموها إلى أسرتهم لم يعاملوها معاملة أبنائهم. لم يسيئوا معاملتها لكني أشعر بأنهم جعلوا لها وضعية أقل. لا كانت ابنة ولا كانت مربية، ولكنها احتلت مكانة ما بين الوضعين. استشفَّيت ذلك من حكاياتها. كان صوتها يرتعش حين تضطر لذكر جدي أو الباشا الكبير كما كانت تفضل أن تسميه. من عِظم تبجيلها لجدتي لم تُشر يومًا إليها سوى بالهانم جدتك. أمي حين كانت تسمع ذلك كانت تؤكد لي أن جدتي لم تكن لتستطيع أصلًا أن تتقدم بطلب عضوية لمجتمعات الهوانم، ولم تكن لتُقبل وسطهن لو سعت لذلك. وتضيف قائلة: «فطنتها، أو خبثها لن يجعلها تتقدم بطلب عضوية من الأساس». تتذكرها والدتي على أنها كانت سيدة بسيطة، ناقصة التعليم، مفرطة الطيبة، ولكنها بالتأكيد لم تكن هانمًا ولا نصف هانم حتى. أما أنا فلا أثر لها في ذاكرتي سوى وجه ساكن دون أي حراك. سكون بلا حراك يجعل قلبي يرتجف صارخًا.

لما تركتنا أمي ظلت جدتي تطارد أبي ليتزوج من جديد. حكت لي عمتي أن ذلك كان الحل الوحيد الذي ارتأته جدتي كي يتخطى أبي الأحزان التي غرق فيها. وحين استمر في رفضه وجدت في عمتي حلًا مقنعًا له. أسهبت في مدح تعامل عمتي معي، وكيف أحبها وأرتاح في صحبتها. مع الإصرار والتكرار والإلحاح، رضخ أبي. طوال عمره يؤكد أن وسع رزقه بسبب رضا أمه، وأنه لم يرفض لها طلبًا في يومٍ من الأيام. حقق لها رغبتها وتزوج عمتي.

أمي لها تعليق واحد على زواج أبي من عمتي. تعليق واحد متشعب أو يبدأ بتعليق أوحد

ثم يتشعب: «مش فاهمة إزاي قدر.. دي شبهه». تستمر في التعجب من كيف استطاع كلاهما التزاوج وقد شبّا معًا منذ طفولتهما. تنظر إليّ مستعجبة مكررة أنهما تربيا كأخ وأخت، فأي زرّ داساه ليتقبلا بعضهما زوجًا وزوجة؟ وكعادتها تسارع فتتحصن بعادات الشعوب المتحضرة كما يحلو لها أن تطلق عليهم الغربيين. تصرح أن المتحضرين يستنكفون من زواج الأقارب. حين أرد عليها بأن إنجلترا، حيث عاشت مدة طويلة، وكل دول أوربا، وكذلك معظم ولايات أمريكا تسمح به، أعرف دائمًا أنها سترد: «سامحين به لمن أتوا من المستعمرات لا لأهل البلد الأصليين». وكأنها تؤنبني، تتهكم قائلة: «هو كل واحد محتاج مربية لبنته يتجوزها؟!». ترتاح وتنهي المناقشة معلنة أن أبي وعمتي على الأقل كانا أكثر ملاءمة لبعضهما عن زيجتها بأبي. أود لو أخبرها بأن عمتي رأت في أبي حلم حياتها. وأنها بكت بلا توقف وهي ترى الحلم يتبخر يوم زُفت إليه أمي. وحين اقترحت جدتي على عمتي فكرة زواجها من أبي، منعها الخجل من الصياح بالموافقة.

كم أود لو أني اعتذرت يومًا لعمتي عن اللحظة التي جرحتها فيها. ذهبت قبل أن أشرح لها أن ما أقدمت عليه لم يكن بيدي ولا برغبة مني، ولكن بناءً على تعليمات أمي. في إحدى زياراتها السنوية الخاطفة بعد أن تركتنا، وبعد أن أصرت على أن أغير بفستاني الذي أتيت به آخر أحضرته معها من إنجلترا، ثم كما اعتادت سرحت شعري على الطريقة التي تحبها، بعدما وصفت تسريحتي بـ«المقرفة» أو «البلدي» لا أذكر. رددت وأنا الطفلة التي لا تعي تمامًا ما تقول: «ماما بتحب تسرحلي كدة». النظرة التي خرجت من عيني أمي في تلك اللحظة كانت كاللهب، وصاحب نيران النظرة التهاب خدي من وقع الصفعة التي نزلت عليه وهي تصيح فيّ:

«أنا بس اللي تقولي لي ماما.. فاهمة؟». ليلتها حين عدت إلى البيت لاحظت عمتي أني لست على ما يرام، فسألتني عمَّا بي، أجبتها: «مفيش.. يا عمتي». راعتني ساعتها دموعها التي انهمرت فجاريتها وبدأت أبكي أنا الأخرى. لحظات حزينة طويلة جدًا برغم قصر زمنها قبل أن تمد عمتي يديها وتجذبني نحوها لتضمني بقوة في حضنها.

***

قبل أن تنضم لورا إلى جلساتي مع نعمت كانت نقطة خلافنا لغتها الإنجليزية. لورا تصر على أنها حين تستقبلها وتتدثر معها قبل مقابلتي يكون نطقها أقرب للهجات الأمريكيين. تسخر مني قائلة إن عليّ التركيز على لكنات نعمت العربية، ولاتترك اللغات الأخرى لأهلها. أجادلها مؤكدًا أنها حين تتحدث، بالذات عن أمها، تلجأ إلى نُطق يذكرني بنطق العائلة المالكة قاطني قصر باكنجهام. انتصار بسيط حدث في أول جلسة حضرتها

لورا. ارتحت والدهشة تعلو وجه زوجتي حين انطلقت نعمت تتكلم بلهجة بريطانية لا تردُد بها. لم تكن تلك اللكنة تأتي منفردة، بل تصحبها دائمًا استقامة ظهرها، ومع هذه الاستقامة تضم ساقيها على جانب واحد، في الأغلب الأيسر، وتُطيل النظر إلى أظافر يدها قبل أن ترفع ذقنها ليشعر المستمع أن كلامها يأتي من هناك، من فوق.

14

لقاء اليوم مع نعمت سيكون صعبًا. اليوم سأتحدث معها بخصوص تشخيصي لحالتها. من أصعب لحظات العلاج النفسي لحظة إطلاع المريض على تشخيصه وشرح أبعاده. في أغلب الحالات يلجأ المرضى إلى الإنكار، ويتبع ذلك هروب وتجنب للاستمرار في العلاج. في مجتمعنا أظن أننا من الممكن أن نضاعف، دون مبالغة، من رد فعل مرضانا حين نواجههم بما يعانون منه. الضغط الاجتماعي وعدم الدراية أو عدم القدرة على تقبل وجود المرض النفسي يجعل المرضى مرعوبين من التشخيص والعلاج. مجتمع يلجأ إلى وصم واحد متفرد للمرض النفسي: الجنون! ومع هذا الوصف أو الوصم، يصبح الأجدى للمريض الانسحاب والتواري تفاديًا لفضيحة تسببها المعرفة بمرضه لأهله ومَن حوله.

مع بداية جلساتي معها شككت في أنها مصابة بالفصام أو الشيزوفرينيا. الأصوات التي باحت بأنها تسمعها باستمرار وجهت فكري إلى ذلك. كثير من أعراضها أوعزت إليّ بأنها حالة فُصام، لكن ظل يؤرقني، وكذلك لورا، أن ليس من بين هذه الأعراض الهلوسة. ثم إن نعمت تفكيرها في الأغلب مرتب، والتفكير غير المرتب أحد أهم أعراض الشيزوفرينيا. كما أنها إنسانة عاشت حياة اجتماعية لا أستطيع وصفها سوى بالعادية دون أي شبهة انسحاب. ربما فُرضت عليها العزلة التي هي بها الآن منذ تطور الأحداث ودخولها المصحة، ولكن قبل ذلك كانت حياتها عادية أو طبيعية جدًا.

حين لفتت لورا نظري إلى احتمالية أن يكون مرضها هو اضطراب الهوية التفارقي، أو كما كان يُسمى اضطراب تعدد الشخصيات من قبل؛ خفت! خفت لأن هذا التشخيص بالذات يحتمل الكثير من التأويل. نسبة غير قليلة من زملاء المهنة ينكرون وجوده من الأساس. نعم، يجد كثير من المتخصصين أنه مرض أقرب إلى الخيال أو لنقل الادعاء. الادعاء هنا يُتهم به المريض حينًا والمعالج أحيانًا أكثر. حالات كثيرة اشتهرت ووصلت من خلال الإعلام للعامة، ثم اتضح فيما بعد أنها كانت دروبًا من خيال مدعيها. مرض سيئ السمعة، وأسوأ ما فيه أن البعض ذهب إلى أن المعالجين، في أحيان، يستطيعون بالإيحاء أن يقنعوا مرضاهم بأنهم مصابون به.

ترويت كثيرًا في حكمي على مدار جلساتنا المتكررة والكثيرة أعملت كل ما درسته وبحثته عن هذا المرض. حللت وتفحصت أعراضها بدقة. استرعتني الأصوات التي تحدثت عنها وأستطيع أن أقول إنني استمعت إليها في جلساتنا. لم تكن أصواتًا ترن في رأسها، بل بدا لي أنها شخصيات متكاملة تشعر وتفكر وتتصرف باستقلالية في أحيان

كثيرة. أكاد أجزم أنني تعرفت على ثلاثٍ منها على الأقل. أحاديثنا معًا عرفتني على نعمت وناعومي ونعيمة. أتوقع، إن استمررنا في العلاج، أن تظهر شخصيات أخرى. التعريف الأكاديمي لهذا المرض يشترط «وجود شخصيتين -على الأقل - متميزتين ودائمتين نسبيًا».

أستطيع أن أضيف إلى ذلك فجوات التذكر التي تعاني منها في أحيانٍ متفرقة. أكثر من مرة حين شعرت بظهور شخصية غير التي بدأت حديثنا كنت أسألها عفا تورديه وأطلب منها الرد دون أن تنظر، فلا تستطيع. بالإضافة إلى ذلك، وفي عدة مرات، كانت تستغرب حين أحاول تذكيرها بأحداث قريبة كانت هي مَن حكتها. في البدايات قلقت أيضًا من مشاعرها بالانفصال التي كثيرًا ما غلبتها. لكن كلما بحثت وقرأت، وجدت أن مجموع الأعراض يصل بي دائمًا إلى نتيجة واحدة أصبحت شبه متأكد منها؛ هي تعاني من اضطراب الهوية التفارقي.

حين أحست لورا بتوجسي مما توصلت إليه من تشخيص، اقترحت علي أن أستطلع رأي أستاذي في جامعة شيكاغو. مساء أمس وصلني رده مؤيدًا تشخيصي. تناوبت مشاعري ما بين ثقة سرت بداخلي مع تأييد أستاذي لرأيي، وتخوف مما سيتلو ذلك من أحداث حين أصارحها. يضاف إلى ذلك خجل من فرحة كون حالة نادرة في تخصصي قاطعت مشواري المهني. أخفيت تلك الفرحة أو الإثارة وتركت الوجل والقلق من قدرتي على علاجها يغلبني. اليوم يوم صعب: يوم إبلاغها بتشخيص حالتها.

***

أجول بعينيّ مرة بعد الأخرى لعلي أجد حولي ما يجعل المكان مألوفًا لي فلا أصيب نجاحًا. إحساس أني لا أعرف أين أنا، وكيف ومتى ولمَ وصلت إلى هنا يقتلني. تتملكني نفس مشاعر الخوف والريبة يوم أفقت لأجد نفسي في غرفة محكمة الغلق في المصحة. أطوف بنظري من جديد أتفحص المكان. شيء من الطمأنينة يتمدد بداخلي حين أجد الحوائط مجلدة بالأخشاب حتى منتصفها. المصحات لا تجلد حوائطها بالأخشاب! تستوقفني الصورة المعلقة على الحائط إلى يميني. يبتسم الرجل الذي يتوسطها ابتسامة متطابقة تمامًا مع ابتسامة الرجل الجالس على المكتب الفخم أمامي. يبتسم في صمت مَن ينتظر مَن أمامه أن يكسر الصمت. أبتسم أنا أيضًا ابتسامة خفيفة أستجديه بها أن يبدأ الحديث، لربما فيما سينطق تفسيرات لما أبحث عنه: لماذا أنا هنا؟ أو ربما السؤال الأوقع يكون: أين «هنا»؟ ومتى وصلت إلى «هنا»؟ بل وما هو «هنا» من الأساس؟ وكأني بلا ذاكرة إطلاقًا أو أني حطيت على المكان دون أن أدري. أتحسس ذراعي لا لأتأكد أني أحلم، ولكن لأؤكد لنفسي أني

مستيقظة.

أتوقف عن محاولة التعرف على المكان، وأستعيض عن ذلك بمحاولة تذكر كيف وصلت إلى هنا. أتذكر جيدًا إفطاري مع أمي. أستعيد معظم ما تحدثنا فيه ومعظمه عمًا جرى في آخر جلساتي مع عمر ولورا. يمتعض وجهها وتنقلب قسماتها حين أذكر معالجي وزوجته. تصر على أنني أضيع وقتي وأنه لن يصيبني من تكرار ذهابي إليهما سوى وصمي بالجنون حين يعرف الناس. كالعادة ينتهي حديثنا بصياحها في وجهي حين أصرح بأنه لم يغد يهمني رأي الناس. تركتني وغادرت الغرفة، وهي تكرر بإصرار أنني سأتسبب في فضحهم. لا أدري مَن سأفضح ولماذا.

أرتاح لتذكري التفصيلي لبداية يومي، لكن تعود الحيرة لتؤرقني من جديد. ما زلت لا أدري أين أنا! أنظر للجالس أمامي على المكتب. لا بد أنه لاحظ الاستجداء في عيني بأن يفصح عن أسباب وجودي في هذا المكان. وسع من ابتسامته وكأنه يطمئنني وبادرني قائلًا:

- تحت أمرك يا نعيمة هانم.

كلمات الرجل الجالس أمامي كان وقعها مثل المنوم المغناطيسي في الأفلام حين يفرقع بإصبعيه ليوقظ الحالة. الآن لا حيرة بي عن المكان الذي أنا به. في مكتب المحامي الخاص بي، الذي عرفني به أحد معارف أمي. كل شيء حولي مألوف والأجواء كلها كما لو أنني بمشهد سينمائي مررت بأحداثه من قبل. كلنا يساورنا هذا الشعور من حينٍ إلى آخر. شعور أننا عشنا الموقف بحذافيره من قبل برغم عدم حدوث ذلك. «الديجا ڤيو» كما يطلقون عليه. سأعرف فيما بعد، من الدكتور عمر، أن ما مررت به قبل استفاقتي يسمونه: «الجاميه ڤيو»، وهو أن يجهل المرء المكان والزمان الذي يراه برغم وجوده به من قبل.

لملمت شتات نفسي واستجمعت قواي وتمهلت قبل أن أرد على سؤاله. سرعان ما تيقنت ممَّا أتيت في طلبه. تنفست في راحة وأنا أطلب منه:

- عايزة ألغي التوكيل العام اللي أنا عاملاه لأخويا سيد.

- إحنا لغيناه يا فندم من أكتر من شهر وبعتنا له على يد محضر ما يفيد بكدة.

تبخرت أي ثقة بي وأنا أنظر لوجهه المملوء دهشة. أغمضت عينيَّ وأنا خجلانة ممَّا أصبح الرجل لا بد وأنه ظانه بي من خَبَل. تذكرت أننا فعلًا ألغينا التوكيل. تذكرت مكالمة سيد طالبًا لقائي حين وصله الإنذار. تذكرت ذلك اللقاء الذي أصر على فوريته. حين دخل عليَّ خُيِّل إليَّ أنه على وشك احتضاني! تراجعت نصف خطوة مشدوهة. كم كان لطيفًا حين بدأ كلامه مستفسرًا إن كان قد ضايقني لأي سبب. قُلت له إني لم أعد بحاجة لوكيل. في لحظة تحول

اللطف إلى ثورة وهياج وتهديد. تذكرت كيف ضم قبضته كفن يستعد للكم من أمامه. تراجعت خطوة مرتعشة. توقعت أن يصفعني وهو على حال الهياج التي وصل إليها. علا صوته متهمًا إياي بتحدي رغبة أبي. حين استمر صمتي تركني بعد سيل سباب ذَيّله بأنني سأرى ما سيفعله بي، وأني سأسعى إليه راكعة. ارتعشت من الذكرى وعاد نفس رعب ذلك اللقاء يتملكني الآن وأنا جالسة أمام المحامي. نفس الخوف الذي لم يزله أبي يومًا وهو يرى سيد يضربني حين بارك ذلك شارخًا لي أنه أخي ويحق له كرجلٍ يرعاني أن يفعل ذلك. مرارًا وتكرارًا أنتظر أن يؤنبه أبي فألحظ في عينيه، بدلًا من ذلك، فخرًا بذكورية صغيره. أتذكر تبرير عمتي اعتداءاته المستمرة بأنها بوازع المحبة والخوف عليّ.

تسيد الصمت المطبق غرفة المكتب. لاحظت أن الرجل لديه مزيدًا يريد أن يشركني به، أو يبهتني به. استمر ينظر إليّ ويبتلع ريقه حتى ظننت أنني أسمع صوت بلعه. قررت أن أزيل عنه الحرج فسألته:

- في حاجة تانية حضرتك حابب تقولها لي؟

وكأنه يرتب كلماته قبل أن يرد، أخذ لحظة طالت قبل أن يقول:

- حضرتك متذكرة إن أول جلسة في قضية الخُلع الأسبوع الجاي؟

- قضية الخُلع؟ دي برضه رفعها سيد بالتوكيل؟

- لا يا فندم، دي رفعناها بناءً على تعليماتك.

هل طبيعي أنني أخذت مثل هذه الخطوة الخطيرة ولا أتذكر؟ هل طبيعي أن عصام ذكر هذا الموضوع يوم مكالمتنا ونسيته تمامًا بعدها؟ هل أنا فعلًا مجنونة كما قال سيد حين اتهمته برفع القضية دون مشاورتي؟ كلام المحامي يؤكد أني أسأت الظن بأخي. ربما للمرة الأولى يكون بريئًا ممّا ظننته به!

أغمضت عينيّ محاولة أن أجد هدوءًا يُمكّنني من أخذ قرار مناسب لما وجدت نفسي في خضمه. وجدتني وقد فقدت القدرة على التفكير. تداخلت وتشابكت الأمور في ذهني. فقط أصبحت خجلانة ممّا قد يظنه بي الجالس أمامي. فتحت عينيّ وتمليت وجه المحامي طويلًا محاولة تصور وقع المفاجأة التي كانت على وشك أن تصيبه جراء ما قررت طلبه. ابتلعت ريقي ببطءٍ قبل أن أنطق قائلة:

- عايزة أعمل توكيل جديد.

15

من الجدليات المستمرة في الدراما عمومًا، مكتوبة أو مرئية، الشخصية المحورية. هل هي الشخصية التي تفسح لها الصفحات أو تطول مشاهدها؟ أم إنها الشخصية المؤثرة بغض النظر عن المساحات التي تحتلها في القصة. في جميع الأحوال، اتُّفق على أن مثل تلك الشخصيات لا بد وأن يفرد لخلفياتها بشيء من التفصيل. وزولا من الشخصيات التي ستلعب دورًا مهمًا هنا، دورًا أو دورين بالأحرى.

زولا اسم إريتري معناه: المتألقة. كيف وصلت المتألقة إلى مصر؟ حكاية طويلة، حكاية عمرها كله. من يوم مولدها وأبوها يخطط لخروجها من إريتريا. لمَّا اختار اسمها تحرى أن يكون نطقه خفيفًا على الأجانب وبالذات الأوزبيين. لم تعلق بذهنها ذكريات لأمها التي فارقت الدنيا قبل أن تعي. أبوها، الأستاذ الجامعي بجامعة أسمرة، قرر أن يحقق ما فشل في تحقيقه من خلال ابنته: الخروج من بلده. لم يدخر جهدًا ولا مالًا، على قلته، في سبيل تجهيزها لذلك. أحسن تعليمها حتى حصلت على البكالوريوس. اهتمامه بأن تجيد اللغة الإنجليزية أتى ثماره حين نجحت في التوظف ببعثة الأمم المتحدة بالعاصمة. الوظيفة بدا وكأنها تنتظر إنهاءها للخدمة العسكرية، فقد تقدمت لها وقبلوها بعد أقل من أسبوع من حصولها على شهادة التجنيد. هناك في بلدها المساواة بين الأنثى والذكر غير موجودة سوى في وجوبية الخدمة الإلزامية في الجيش. كلما ناقشت والدها في سبب إصراره على أن تبحث عن سبيل للخروج من بلدها، يخبرها بأنه يريد لها حياة أفضل. حين كان نقاشهما يحتد فتتهمه بأنه يكره وطنه، كانت عيناه تدمعان.. إنه على العكس يعشقه. يعشق الأرض الحمراء كما يعني اسم إريتريا الذي حازته من مجاورة البحر الأحمر منذ بداية الزمن. ظل يقنعها بأنه يريد لها أن «تعيش» كما يجب للبني آدم. تعيش حياة مفتوحة دون التكميم المفروض على شعبهم. تعيش دون أن تكون محاصرة في وطن لا يرضى أن يكون لأهله صوت سوى صوت مَن يحكمونه. بلدهم كما كان يقول سقط من ذاكرة البشر. لم يحظَ باهتمام كافٍ ممَّن يدَّعون رغبتهم في حصول الإنسان، في كل مكان، على حقوقه. بلد مظلوم تاريخيًا برغم أن الحفريات تشير إلى أن أول البشر نزحوا من هناك. مع الوقت، اقتنعت زولا بما غرسه فيها والدها فأصبح حلمه حلمها، خاصة بعد ما لحق بأمها فأصبحت وحيدة بلا أهل.

أحبتها مديرتها في إدارة حقوق الإنسان واللاجئين بمكتب الأمم المتحدة بالعاصمة أسمرة. تعدت علاقتهما الوظيفة؛ فأصبحت المتألقة الابنة التي لم تحظَ بها المديرة التي أتت من بلاد الفايكنج، الدنمارك، إلى إريتريا. عملتا معًا أكثر من خمس سنوات قبل أن يأتي قرار

قبول الدنماركية لمنصب هام ترعى فيه اللاجئين الذين تكاثروا في بلدها الأصلي. قبل أن تغادر رتبت لزولا، بأعجوبة، السفر إلى القاهرة. الغرض المعلن كان أن تزور اللاجئين الإريتريين هناك لتقدم تقريرًا عن أحوالهم. أما الاتفاق بينهما فكان أن تطلب من مصر حق اللجوء إلى الدنمارك. ستقدم أوراقها فور وصولها من هناك، وستقوم مديرتها بإتمام الإجراءات حين تصل إلى بلدها. لم تتصور أن الإجراءات ستطول لسنوات. مثلها مثل مواطنيها اللاجئين في مصر سجلت نفسها في كنيسة إنجليكية في الزمالك من أجل الحصول على وظيفة تعينها على ما تحتاجه من مصاريف. ساحة الكنيسة يترصصون فيها صباحًا في انتظار أثرياء مصر، أو مندوبيهم، ممّن يبحثون عمّن يخدمونهم في قصورهم. مشهد متطور لأسواق النخاسة في عصور ازدهار تجارة العبيد. ربما أقل قسوة في طرق فحص المعروض، ولكنه لا يقل مهانة في نتاج تداول بضائعه.

telegram: @alanbyawardmsr

يوم زارت نعمت الكنيسة باحثة عمّن يعاونها في أعمال البيت، كانت زولا أول مَن وقعت عليها عيناها. انطلقتا في التحدث معًا بالإنجليزية فارتاحتا لبعضهما بعضًا. عادت معها إلى بيتها فلم تغادره إلا قليلًا. حتى أيام إجازتها فضلت، في الأغلب، أن تقضيها هناك. نعمت أحبتها فلم تعاملها بتعالي السيدة على خادمتها. تركت لأخريات التنظيف والطبخ وجعلت من زولا مديرة للمنزل. أصبحتا صديقتين تكثر بينهما الأحاديث المتناسبة مع ثقافتهما وتعليمهما العالي. ثقافة الإريترية وحسن تعليمها وتربيتها، أذهلت صاحبة البيت وأصبحت مثار إعجابها.

برغم تعجبه من العلاقة بين زوجته والإريترية، لم يجد عصام سببًا للاعتراض. من ناحيتها كانت زولا تختفي حين يكون متواجدًا بالمنزل. تعايشا في نفس البيت دون أن يضطرا للتواصل. المرات التي كان يطلب شيئًا من زوجته فتقترح أن يطلب من زولا ظلت إجابته واحدة:

- قولي لها إنتي!

حين ومضت فكرة الحجر على نعمت في ذهن عصام لأول مرة لم يتصور أنه سيجد مَن يسهلها عليه أو مَن يجاريه في تنفيذها. طالما عزا نجاحه في عمله إلى قدرته على تجنيد مستشاريه لأغراضه. برغم تردده، غلبه ولعه بحسن التخطيط، فقرر أن يستفتي رأي طبيب نفسي فيما خطط له. بحث في دفاتر معارفه فوجد زميل مدرسة غدا من مشاهير الطب النفسي في مصر. اتصل به ليحدد موعدًا فوجد ترحابًا شديدًا شجعه. حين تقابلا لم يفصح عن خبث غرضه، بل حكى له، بإضافات شبه خيالية، ما وصفه بمعاناة زوجته. استزاد في تأليف ما يوحي بشدة اضطرابها. بعد أن تعددت لقاءاتهما استشف عصام نقطة للولوج

والمصارحة مع صديقه صاحب المصحة الشهيرة. نقطة ضعف حينما تتواجد يصبح عقد الصفقات مجرد عملية وقتية. مثل أغلب البشر وجد في صديقه عشقًا للمادة. لم يحتج الطبيب، ولو للحظة، على العرض المقدم له. على العكس طلب مهلة، لا للتفكير، بل للتخطيط. في لقائهما التالي ناقش المكسب ولم يتطرق للمبدأ ولا أخلاقياته.

أصبح مطلوبًا من عصام أن يدس لنعمت جرعة يومية من دواء. الدواء في خلال أشهر قليلة يجعل لديها أعراضًا نفسية تجعل نقلها للمصحة مطلوبًا ومعقولًا. حين تنقل إلى المصحة سيكون أمرًا طبيعيًا أن يرفع زوجها قضية حجر لإدارة أملاكها لحين شفائها. وهكذا أصبحت هناك خطة بخطوات وأدوات وثمن سيقبض مع تنفيذها. كي يؤكد ضلوعه في التنفيذ، أصر عصام على دفع مقدم أتعاب لصديق تختة المدرسة، صاحب المصحة الشهيرة.

يوم عاد إلى المنزل حاملًا جرعات الأدوية المطلوب دسها لنعمت، رأى زولا تغادر إلى حجرتها في طريقها إلى اختفائها المعتاد مع تواجده. لمعت فكرة في ذهنه في اللحظة نفسها. حسب سريعًا ما ستكلفه صفقة إضافية فوجدها تستحق الثمن.

تعمد في اليوم التالي أن يتأخر في النزول. تحجج لزوجته أن لديه موعدًا قبل الذهاب إلى المكتب. ما إن غادرت نعمت حتى نادى على الإريترية. سألها عن وضع أوراق سفرها للدنمارك فأخبرته بأنها حصلت على كل الموافقات، وأنها في خلال أشهر قليلة ستغادر إلى هناك. اتسعت ابتسامته حين سمع ذلك. استفاض في سؤالها عن أوضاع بلادها وأبدى تعاطفًا كبيرًا وهي تحكي. استمع باهتمام لما حكته من سوء الأوضاع في وطنها. أثنى على رغبتها في الهجرة إلى أوربا ليزيد من شعورها بالارتياح نحوه. عندما شعر بالدفء الكافي يسود حوارهما حدثها عن قلقه بخصوص نعمت وعصبيتها الدائمة وقلة نومها مؤخرًا. أخبرها بأنه حرصًا عليها استشار أهم طبيب نفسي والذي أشار بضرورة حصولها على علاج. كسا وجهه الحزن وهو يخبرها بأن نعمت رفضت الدواء. استجداها لتساعده من أجل مصلحة مَن يعلم أنها تحبها كصديقةٍ قبل أن تكون موظفة لديها. وعدها أن يمول سفرها حين يأتي الوقت وأن يعطيها من الدولارات ما يجعل وصولها إلى مهجرها الأوربي مرتاحًا. أخرج من جيبه ألف دولار عربونًا لما وعد. ارتاح حين مدت يدها فأخذت الفلوس وأسرعت بوضعها في جيبها، كأنها تخبئها.

لمدة أسبوع بعد حديثهما ظلت زولا تذيب الدواء في شاي نعمت الصباحي. أسكتت أصوات الحيرة، كلما علت، بعدّ الدولارات التي أخذتها من عصام. قلقت من تقربه المفاجئ منها. حاولت أن تقنع نفسها بصدق غرضه. لكنها لم تستطع الاستمرار طويلًا فيما تفعل. وكأنها قررت ألا تكون شخصية ثانوية في الحكاية. قررت أن تنحاز لفن أكرمتها وصادقتها

حين لم تكن بحاجة لذلك. عزمت على أن تتمسك بالمثل التي غرسها فيها أبوها. بعد تردد لم يطل، حكت لنعمت ما طلبه عصام منها دون قدرة منها على إيقاف دموع سالت على وجنتيها السمراوين. استغربت كيف استقبلت سيدتها ما أسرّت به لها. هدأت من روعها وطمأنتها أن عصام يفعل ما يظنه في مصلحتها. طلبت منها أن تجاريه، بل نصحتها أن تطلب منه مبالغ أكبر ممّا كان يعطيها. ارتبكت زولا ولكنها قررت أن تمتثل لتعليمات نعمت دون أن تحاول تفسيرها.

16

لم يمضِ وقت طويل منذ بدأت لقاءاتي مع نعمت. تحيرني عدة أشياء فيما يخص حالتها. فاجأني رد فعلها لمّا أخبرتها بتشخيصي لحالتها. توقعت، كما تعودت مع مرضاي، أن ترفض وتستنكر، وأن يتبع ذلك غضب عارم. عادة ما يختفون فترة يفاوضون أنفسهم خلالها قبل أن يعاودوا الاتصال وزيارتي، وفي أحيان كثيرة يختفون من بعد التشخيص. يبحثون عمّن يطمئنونهم أنهم بخير وأنهم ليسوا مرضى، وإذا عادوا عادة ما يبدأون في التفاوض. يحاولون تخفيف وطأة ما أخبروا به. يتفاوضون من أجل الهروب من تبعات مرضهم. أو ربما من أجل إزاحة همّ ما أصبحوا مضطرين لمجابهته. كل هذا يسبق خنوعهم وقبولهم بما شُخّصوا به. لكن نعمت قبلت على الفور، وكأنها كانت تعرف ما بها أو أنها على أقل تقدير ارتضته دون إطالة في المناقشة. لا أدري لماذا يقلقني موقفها هذا. أقلقني لدرجة أنني ناقشته أكثر من مرة مع لورا. اتهمتني بعدم الثقة في نفسي وتشخيصي:

- وكأنك تريدها أن ترفض ما وصلت إليه.

- خطوات التقبل التي أشير إليها نتاج دراسات وأبحاث. الطبيعي أن تمر بتلك المراحل، غير العادي قبولها دون مقاومة.

- لكنك تعرف جيدًا أن الأبحاث في النهاية تعتمد على إحصاءات.. تعتمد على النسبة الأكبر لا الإجماع المطلق.. وفي علم النفس بالذات لا يوجد إجماع، بل لا تكاد توجد حالة مماثلة لغيرها في جميع الأوجه لأخرى.

كلامها هدأني قليلًا قبل أن تعيد تساؤلاتها التالية توتري.

- لماذا تريدها أن ترفض تشخيصك؟ هل بك شك؟ أحيانًا نريد ممن أمامنا أن يؤكد شكوكنا.. هل هذا ما تريد؟

- تعلمين أن الحالة نادرة، وبالتالي تشخيصها صعب.. بل إن التشخيص في حد ذاته به مخاطرة.. أطباء نفسيون كثر ينكرون وجود الحالة من الأساس.. وآخرون يتهمون من يشخصونها بأنهم وراء إيهام مرضاهم بأنهم يعانون من تعدد الشخصيات.

ضحكت لورا قائلة:

- وبنفس المنطق هناك من يدعون إصابتهم بهذا المرض بالذات للهروب من جرائم! لعلك تشك أن نعمت من هؤلاء!

- بالتأكيد لا.. فقط توقعت مقاومة ولم أجدها.

- نعمت إنسانة شديدة الذكاء.. ثم إنها دارسة لعلم النفس، فربما سهل عليها ذلك التقبل.

- ربما.. عمومًا مع استمرار جلساتنا تزداد قناعتي بتشخيصي.

- أنا متأكدة من التشخيص.. ليس بي أي شك.

مشاركة لورا لي في مباشرة حالة نعمت كانت من أحسن القرارات التي أخذتها. وجودها إلى جانبي كان ضروريًا. ربما لأنها أنثى مثل المريضة فأضافت بوجودها بُعدًا لم أكن أستطيع ملأه وحدي. كما أنها سبق لها وباشرت حالة مماثلة في أمريكا مما جعلنا أكثر ثقة في تعاملنا مع نعمت ومتابعتنا لحالتها. ملاحظتها دائمًا مهمة ومثيرة للأفكار كيوم علّقت بعد انتهاء جلستنا مع نعمت:

- هل لاحظت تغيراتها الجسمانية المرتبطة بخروجها ودخولها من شخصية إلى أخرى؟

- ماذا تعنين؟

- حين تطفو ناعومي إلى السطح دائمًا ما تجد ظهرها مفرودًا قائمًا. تضم ساقيها إلى الجانب الأيسر وتجلس على طرف المقعد. حتى وجهها يبدو وكأنها تفرده. تبدأ دائمًا بتمرير يدها في شعرها وكأنها تتأكد من حسن تصفيفه. يتفق هذا مع الشخصية التي تبغي الكمال أو بالأصح تتحراه كما علمنا من أجل إرضاء أمها.

أضفت أنا:

- وتطيل النظر إلى أظافر يدها اليمنى قبل أن تبدأ في التحدث.

مشاهداتها كانت صحيحة. عبرت عما كنت قد لاحظته. أردتها أن تستمر فسألتها:

- وماذا عن نعيمة؟

- نعيمة يحدث بها انكماش.. تمامًا مثل شخصيتها، تتوارى كأنها تحاول ألا تظهر. جلستها غير مرتاحة بعض الشيء، أو ربما غير صحية.. الظهر مقوس وكتفاها ينثنيان إلى الداخل.. قدماها مثبتتان إلى الأرض وكفاها متشابكتان فوق رجليها.. الغريب أن ملامحها تبدو لي أكثر شرقية.. عيناها يصيبهما انكسار.. تحيرني نظرتها التي لا تتوافق مع صوتها الخفيض، أشعر بأنها قلقة مما تقول أو غير واثقة.

- أو بها لؤم.. لؤم فلاحين كما نطلق عليه.

- ما المقصود بلؤم الفلاحين؟

- بهم خبث يوارونه حتى يصلوا إلى مآربهم.

- أي عنصرية هذه؟! أن تصموا مجموعة بعينها بصفة جامعة مثل هذه!

علت ضحكتي وأنا أرد عليها:

- العنصرية في مصر تنتهي مع تعاطفنا مع ما فعله جدودكِ مع عبيدهم الأفارقة. نتأسى ونحزن من أجلهم ثم نبدأ دون تمييز في ممارسة العنصرية بجميع أنواعها. عنصرية وطبقية وطائفية، كل سبل التمييز الممكنة تجدينها لدينا. لم ندخل إلى قواميسنا بعد «الصوابية السياسية» كما تطلقون عليها. أضفنا الذكورية والنسوية مؤخرًا لكن دون تدقيق. ما زلنا في طور التجريب في هذا الموضوع نعشق التحزب ونأخذه إلى مداه، حتى في الرياضة تجدينا إما أهلاوية أو زمالكاوية ونعاملهم معاملة الملل! أتدرين يا لورا؟ برغم أن طريقتنا فيها وقاحة لا تتماشى مع العصر، إلا أنها في كثير من الأحيان تبدو أفضل من التورية والكتمان الذي تخفون به كثيرًا من مشاعركم الحقيقية.

- وهل تعتبر هذا إخفاء لمشاعرنا أم محاولة للتحسن والتعاطف وأن تكون أفضل، حتى لو كانت أفعال أغلبيتنا الآن تغطي حقيقة عنصرية البعض منّا؟

- تصورين الموقف كما لو أن العنصريين بينكم أقلية. الحقيقة يا حبيبتي أن البشر، على فطرتهم في ظني، يعشقون التفرقة. طائفية عنصرية طبقية، الكل يريد أن يتفرد بوصف وأن يستدفئ بكونه جزءًا من جماعة يتميز بكونه عضوًا فيها. هذه حقيقة، وكلما تمكنت مجموعة ما من الصعود وأصبح بها قدرة على التغني بأصولها، سارعت بإعلان إغلاق عضويتها على مَن أسسوها وورثتهم. كل دين يعلن أنه دين الله المفضل، وكل شعب يسهب في سرد مميزاته وتاريخه، وكل قومية ترى في أتباعها شجاعة أو قوة أو إقدامًا غير موجود فيمَن يجاورهم. الصُفر يروجون أنهم الأذكى، والبيض هم الأكثر تحضرًا، والسود هم الأسرع والأقوى. والكل يمحو ويُسقط من ذاكرته أن جدودهم في لحظة تاريخية أو أخرى أجرموا بحق غيرهم من البشر بحكم تفوق لحظي.

لاحظتُ أنني تزيدت في الحديث العام فسارعت أعيد لورا إلى ملحوظاتها:

- وماذا عن نعمت؟ هل تتغير جسمانيًا هي الأخرى؟

- نعمت الأقل تغيرًا. ربما لأنها الشخصية الأكثر ظهورًا أو ربما لأننا نشعر بأنها الشخصية الأصلية. ومع هذا فنعمت لها سمات خاصة: صوت هادئ لا يعلو ولا ينخفض تحت أي ظرف. ابتسامتها تصر على أن تغطي بها كثيرًا من المشاعر، وعلى الأخص حيرتها مما تمر به. جلستها عادية لا محاولة فيها لإثبات شيء بعينه. ما أستغربه حقًا هو أنني في المقابلة نفسها ودون أن تغير ملبسها أجد ناعومي، حين تظهر، أكثر أناقة من نعمت. كأن الثياب بها هيبة من طالبة الكمال!

سكتت لورا قبل أن تعاود حديثها:

- قل عني مجنونة، ولكني أرى فروقًا في شكل يد كل شخصية منهن. ناعومي أصابعها مفرودة في حين تقبض عليهم نعيمة، ونعمت ما بين الاثنتين. أصبحت بي قدرة على معرفة من تحضرنا قبل أن تنطق.

حديث لورا هذا اليوم جسم في ذهني ما لاحظته، ولكني لم أستطع أن أضعه في إطاره كما فعلت زوجتي العزيزة والمعالجة النفسية القديرة. على قدر سعادتي بمهارتها، على قدر ما أصبحت بي غيرة لأنها سبقتني في مشاهداتها تلك، وكأنني أردت أن أتفوق عليها وجدتني أبادرها:

- وماذا عن الشخصية الرابعة التي بدأت في الظهور على استحياء؟

أبهرتني بردها:

- تقصد الطفلة دائمة البكاء؟ هذه هي المفتاح يا عمر هذه بداية إصابتها بالمرض. تعرضت لأذى جسدي بلا شك. المشكلة أنها تبكي فقط ولا تنبس بكلمة. لا بد وأن نجعلها تحكي قصتها.

- صح يا لورا.. صح جدًا.. نوني كما تسميها نعمت هي بداية الحكاية.. سنصبح على بداية طريق علاجها الحقيقي لو نجحنا في جعلها تحدثنا.

17

باغتني سؤال الدكتور عمر قبل أن أبدأ في محاولة الرد تأكدت أن ظهري مفرود كما يجب. ضممت ساقي قبل أن أحركهما إلى يساري كما تصر أمي. مررت بأصابعي في شعري أطارد خصلة أو أخرى تكون قد خالفت التهذيب المبتغى. أخذت نفسًا عميقًا وأنا أستعيد تساؤل الطبيب في ذهني:

- ما أول ذكرياتك مع أمك؟

«مش فاكرة». هذا ما كدت أفتح فمي به كي أرد عليه. تحرجت مما كنت سأقول فعدت أراجع نفسي. لا توجد لي ذكرى أولى مع أمي كما الأطفال الآخرين. لا أتذكرها وأنا أحبو أو مع خطواتي الأولى. أظن أن مثل هذه الذكريات المرتبطة ببداية الوعي هي ما كان عمر حشمت يبحث عنه. أتذكر عمتي في تلك الفترة من حياتي. هي مَن تضفر شعري بعد حمّامي، وهي مَن تحكي لي حكايات قبل النوم. تجهز معي عدة دخول المدرسة، وتصحبني حتى بوابتها في بدء كل عام دراسي. أمي غير موجودة في هذا الشريط من الذكريات. غير موجودة وغير مذكورة. أول ذكر لها كان مفاجأة وأنا على مشارف العاشرة. عمتي أخبرتني بأنها قادمة لزيارتي، وجدتي سبّتها حين ظنت أنني لا أسمعها. يومها صمتُ ولم أطلب تفسيرًا. لم أكن قد طلبت تفسيرًا من قبل لعدم تواجدها فظننت ألا يحق لي أن أطلب تفسيرًا حينئذٍ لظهورها المفاجئ. لا أدري حتى اليوم كيف عشت حتى هذه السن دون أن أفتقد وجود أم لي. ربما لأن عمتي لعبت دورها على أكمل وجه. أو ربما لأني في هذه السن الصغيرة كانت بي من الحكمة أن أعلم أن ما لا أعرفه لن يجرحني. الأغلب أنني لم أحتج لأم بيولوجية في وجود ماهرة قائمة بأعمالها.

أتذكر الآن أن أحدهم ، في تلك الآونة، كان أحيانًا يذكر أن لي أمًا، وأنها سافرت أو هاجرت. لست متأكدة، لكن ربما أحسنت إخفاء تلك المعلومة في سراديب ذهني حتى نسيتها. هذا التناسي كان لي أفضل من معاناة تحري أسباب هجرها. في الأغلب هذا هو ما حدث: حكوا لي وأنا تناسيت، وعندما عادت تذكرت أنها موجودة فلم أفاجأ.

استجمعت شجاعتي وقررت أن أحكي «أول» ذكرياتي مع أمي للطبيب دون رتوش أو محاولات تجميل. أذكر ذلك اللقاء جيدًا جدًا بكل تفاصيله. المكان كان في شقتها في جاردن سيتي، أو شقة جدودي لأمي كما عرفت لاحقًا. الشقة التي بالدور الأرضي في عمارة أبي. عرفت فيما بعد أن الإجراء القاسي الوحيد الذي اتخذه أبي لمّا هجرته أمي كان إصراره على ألا يكون هناك اتصال لها بي، لا هي ولا عائلتها. لم يعارضوا طلبه وقبلوه، فيما يبدو، دون

مناقشة. سأعرف فيما بعد أن أمي اختارت الخلاص بأي ثمن مهما غلا. إجراؤه الآخر، الذي تزامن مع الطلاق، كان نقله لسكننا إلى إحدى عماراته بوسط البلد. ولكن أبي في النهاية تخلى عن شرطه ورحب باتصالها بي لمّا طلبت ذلك. تغلب حبه لها على مرارة ما عرضته له.

حين فتحت باب الشقة لم تبادل عمتي تحية. فقط مدت يدها وأدخلتني دون أن تنطق، ثم أغلقت الباب. تلفّتُ فلم أجد لعمتي أثرًا. اضطربت في حضرة هذه السيدة الجديدة عليّ. وجدتني أقف أمامها لا أعرف ما المفروض أن أفعل. التفتت ومشت إلى الداخل فسرت وراءها. وصلنا إلى أريكة جلست على طرفها وأشارت إليّ لأجلس على الطرف الآخر. ثم أشارت إليّ أن آتي إلى جانبها. حين فعلت بدأت في فك ضفيرتي ومشطت شعري قبل أن تعقده على شكل ذيل حصان كما يطلقون على التسريحة التي اختارتها. بعد ذلك تركتني وقامت إلى داخل الشقة. انتظرتها وأنا حائرة. لم أعرف التصرف المطلوب مني في مثل هذا الموقف. لا أظن أن أحدًا يعرف ما التصرف المطلوب في مثل هذا الموقف. موقف غير عادي ولا يتكرر، أو بالأدق لا يحدث من الأساس. عادت وبيدها فستان ملون زاهٍ وساعدتني في تغيير ملابسي وارتدائه. ألبستني حذاءً جديدًا أيضًا. حين انتهت تفحصتني برهة قبل أن تضمني. أحببت حضنها وإن لم أفهم حين قالت:

- كدة بقيتي بنتي!

تفحصتها بدوري فوجدتها تشع جمالًا. أمي جميلة. ليتها أعطتني مزيدًا من رونقها. ظلت تتفحصني هي الأخرى. سألتني عن المدرسة وعن أي مواد أحبها. استمر حديثنا قليلًا قبل أن تنادي:

- آدم.. تعالَ.

وجاء آدم. قدمته أمي قائلة:

- آدم، ابني.

وقدمتني بالإنجليزية:

- نعمت.. حكيت لك عنها.. يمكنك أن تسميها ناعومي إن كان ذلك أسهل لك في النطق.

لم تقُل لي إنه أخي، ولم تقُل له إنني ابنتها. أتذكر ذلك جيدًا، وإن لم أحاول أن أفهم أو أتلمس أسبابًا. صغر سني حينذاك كان مفيدًا.

آدم كان في نفس سن سيد، لكنهما مختلفان تمامًا. واحد بشرته بيضاء وشعره أشقر ناعم، والآخر شعره مجعد وبشرته داكنة. تقاطيع وجهه متسقة، فلا أنف كبير ولا فم واسع دون

سبب، وأسنانه متسقة لا نفور بين صفوفها. أحلى ما فيه عيناه الزرقاوان اللتان حرت من أين أتى بهما. سأعرف فيما بعد أنها إرثه من أبيه الإنجليزي. حين بدأ يتكلم أسرتني طريقة نطقه. تمنيت لحظتها أن أستطيع أن أباريه. تهتهت في ردودي عليه بالرغم من أن مدرستي كانت تقول إنني أشطر طلابها في الإنجليزية. كان آدم ودودًا وأمضينا الوقت نلعب معًا وأمي تشاهدنا. أحببت آدم ولطفه. لم يكن به عنف سيد. يومها تمنيت لو أصبح أخي بصفة دائمة، بدلًا من سيد.

حين أعلنت أمي، أمنا، أن وقت الزيارة انتهى، تركني بهدوء، دون جلبة، كأننا لم نكن نلعب معًا طوال الوقت السابق. لم يودعني. فقط قام وعاد من حيث أتى.

أما هي فقبلتني قبل أن أغادر حين أتت عمتي لتصحبني إلى البيت. قبلتني مرة على وجنتي اليسرى وأخرى على جبهتي. لم أعِ أني سأضطر إلى الانتظار سنتين أخريين قبل أن أحصل على قبلات أخرى منها.

حين عدت إلى المنزل رقت عمتي لحالي فحكت لي القليل عن أمي. شرحت لي أن في بعض الأحوال لا يستطيع الأزواج استكمال حياتهما معًا ، وأن هذا ما حدث بين أبي وأمي فانفصلا. كانت جدتي لأبي ثالثتنا في جلستنا، وظلت تقاطعها. أصرت جدتي على وصف أمي بالتمرودة. لم أكن أعرف الكلمة فأسهبت في شرح أنها لم تقدر نعمة زواجها من أبي وكيف أسبغ عليها من كرمه، ووفر لها أفضل معيشة. استمرت جدتي في هجومها:

- أم قاسية.. رفضت حتى ترضعك.. قلبها حجر.

قاطعتها عمتي بنظرة غاضبة وقالت لي إن الطلاق، وإن كان كريهًا، لكنه يحدث. أخبرتني بأن أمي بعد الانفصال سافرت إلى لندن لتكمل دراستها. قاطعتها جدتي قائلة إنها سافرت إلى بلاد الإنجليز لتلحق بحبها الأول الذي كان يعمل بسفارتنا هناك. لم أعرف وقتها معنى سفارة، ولم أهتم بأن أستفسر. أتذكر فقط أن جدتي ظلت مصرة على أن أمي خائنة، وأنها خططت لخيانتها وتركتني وراءها، وأنها لا تستحق أن تكون أمًا من الأساس. حين سألت عن آدم أخبرتني عمتي بأنه أخي من زوج أمي الإنجليزي. أضافت جدتي أنها لم تكتفِ من الفضائح فزادتها بالزواج من كافر. سألتهم لمَ لم تتزوج من الرجل الذي سافرت إليه؟ فصمتتا طويلًا، قبل أن ترد جدتي وهي تمصمص شفتيها:

- أكيد عرف أنها قليلة الأصل فرماها.

حين قاربت على الانتهاء من قص بداية تعارفي على أمي لعمر ولورا، بدأت دوخة تغالبني. تسارعت عليّ ضربات قلبي وأحسست بأن فمي جف. أغلقت عينيّ فسرت بجسدي قشعريرة

مصحوبة بسخونة غلبتني.

لم أدرِ لمَ أغلقت عينيّ، ولكني حين فتحتهما وجدت عمر ولورا ينظران نحوي بإمعان. استغربت وضع ساقيّ الموجهتين إلى يساري فحركتهما إلى المنتصف. تحررت من فرد ظهري المستقيم زيادة على الحد، وغصت قليلًا في مقعدي أنشد راحة في جلستي بعد أن حررت يديّ من قبضتهما الشديدة. أحسست بتسارع النبض في مؤخرة رأسي فدعكته قليلًا. نظرت إلى طبيبي وزوجته ثم قلت:

- أمي ظلمتني كتير على فكرة.

فاجأني رد لورا التي شخصت في وجهي وهي تسألني:

- نعمت؟

***

حكاية أم ناعومي بالتأكيد تسببت في صدمة شديدة للطفلة. بالطبع معالجة الموقف كله، سواء جفاء الأم أو إخفاء الأب وزوجته لسيرة أمها، زادت من وطأة الأثر على نفسيتها. بعد الجلسة تمحورت مناقشتي مع لورا حول المرارة التي لا بد وأن عانت منها الطفلة وهي تواجه اختفاء أمها من حياتها دونما مبرر. تعجبت لورا من قسوة قرار الأب بمنع الأم عن ابنتها. كالعادة لامت ذكورية المجتمعات الشرقية وما يُمكّن رجالها من إملاءات من هذا النوع. في حين ارتأيت أنا أن الأم كانت على نفس درجة القسوة حينما قبلت ذلك من أجل الطلاق. في ظني هي الأكثر قسوة، إذ استطاعت أن تدوس على أمومتها وهي تهرب من زيجتها. اتفقنا أن مثل هذه المواقف لا يدفع ثمنها سوى الأطفال الذين يعيشون بقية حياتهم بجروح لا أمل في أن تندمل. توقفت لورا كثيرًا عند أسلوب تعامل الجدة مع الموقف، وما تحمله نعمت من ذكريات مؤلمة لأقوالها. شرحت لها أن في الأغلب الجدة لم تُصِب الكثير من التعليم، وأنها تتعامل بقبلية الريفيين وانحيازهم الأعمى لأولادهم، وعدائهم المعلن لمَن يجرحهم. لا أستطيع أن ألومها على شعورها بفصة تجاه طليقة ابنها. توافقت مع لورا على أن بداية مرضها لم تكن مع صدمة اللقاء الأول مع أمها، بل حدثت بسبب تعرضها لصدمة أو صدمات تالية.

18

لا يستطيع الذكر البشري استيعاب اهتمام أنثاه الزائد بتغليف الهدايا. يتفهم أهمية الهدية وأن قيمتها، ماديًا ومعنويًا، لها وقع وتأثير هامان في العلاقات بين الجنسين. لكن التفهم لدى الذكر يتوقف عند الفكرة ومن بعدها تنفيذها فيشعر حينئذ بالتحقق، أما ما يتبع ذلك من طقوس انتقاء ورق التغليف الذي يحمل رسالة ومن بعدها عملية التغليف نفسها، فببساطة أمر شديد التعقيد على العقل الذكري. في حالة نعمت الاهتمام بموضوع التغليف يأخذ أهمية قصوى ودقة بالغة مثلما تعلمت من أمها. تؤمن تمامًا بأن الرسالة الضمنية التي يحملها تغليف ما تهديه تلامس، إن لم تزد، قيمة الهدية الكامنة بداخله.

الهدية هذه المرة، في الأغلب، أقيم ما يمكن أن تقدمه في حياتها. لكنها حين فكرت في لفها احتارت، وبشدة. وجدت صعوبة في ابتكار طريقة للف ورقة. كيف تُغلف بورقةٍ ورقةً أخرى؟ ثم جاءت فكرة استخدام ظرف. أفضل الحلول دائمًا أبسطها. استوقفها فقط عدم استساغتها لأن يكون ظرفًا أبيض. فكرت في أن البياض سيجعله ماسخًا بلا شخصية. انتقت من مخزون أمها ظرفًا ورديًا استحسنت الرسالة التي يبعثها لونه. تعلم جيدًا أن الوردي يبعث رسالة تحمل الشغف، وفي الوقت ذاته بها سلام. السلام هو ما تنشده من هديتها. ثم بدأت التفكير في مراسم وطريقة تسليم الهدية. هل تقوم بتسليمها بنفسها، أم تبعثها ومن بعد هذا تلقاه؟ لم يطل تفكيرها، ويبدو أن ذلك اليوم كان يومًا، على غير عادتها، لا تطيل فيه التدبر والتخطيط. مرة أخرى وجدت أن أبسط الحلول في الغالب أكثرها مواءمة وأناقة.

فوجئ عصام بنعمت واقفة أمامه وهو بعد يحتسي كوب قهوته الصباحي. لم ينطق أيهما. فقط مدت يدها بالظرف، ومد هو يده متلقيًا إياه. فتحه وأخرج الورقة المطوية، وحين تعرف على محتواها انسحبت على وجهه دهشة أقرب للذهول. لحقته نعمت قائلة:

- بحبك وواثقة من حبك.

لم يرد، وظل يقلب في التوكيل العام الرسمي المصدر منها له، والذي بموجبه يحق له التصرف في كل شئونها.

مع صفاء الأجواء مع عصام وعودة المياه إلى مجاريها وعودتها إلى بيتها، قد يبدو اليوم المشهود أصبح في طي النسيان. لكن في الواقع أيام مثل تلك لا تُنسى، وتصر على أن تظل محفورة في ذاكرة مَن عاشوها. لم تمس أحداثه عصام ونعمت فقط، بل امتدت لتضم آخرين. يوم قام عصام بتخديرها ونقلها إلى المصحة. جزء من خطته يومذاك كان أن يُخلي

البيت تمامًا، ولذلك أصر على أن تأخذ زولا إجازة وألا تعود إلا في اليوم التالي. ما لم يكن يعرفه هو أن الإريترية لا تفضل أخذ الإجازات. لم يكن لديها أصدقاء تقضي معهم أيام عطلة، ولا مكان تذهب إليه للبيات. خروجها كان مرتبطًا بذهابها إلى مفوضية اللاجئين كل حين لمتابعة أوراق انتقالها من مصر إلى أوزبا. مع إصراره اضطرت إلى الخروج من البيت، لكنها اكتفت بالجلوس على ناصية الشارع بالقرب من البيت منتظرة خروجه حتى تتسلل إلى الداخل دون أن يراها. مرة أخرى، ودون قصد أو رغبة منها، تلعب زولا دورًا محوريًا في الأحداث.

حين رأت سيارة المصحة تتوقف أمام البيت أصابها الذعر. أسرعت متجهة إلى البيت قبل أن ينتابها توتر وتردد فتوارت عن الأعين. راقبت الجلبة الحادثة انتهاءً بتنزيلهم لنعمت على محفة وإدخالهم لها إلى مؤخرة سيارة الإسعاف. خطت نحوهم قبل أن تعود متسمرة في مكانها. توقف بها الزمن وهي ترى سيدتها، وصديقتها، في هذا الوضع. لم تعرف سببًا لإمعانها في الاختفاء عن نظر عصام، الذي ظل واقفًا في الشارع عدة دقائق بعد ذهاب السيارة التي تحمل زوجته. ارتابت من تصرفه، وقد ظنت أنه لا بد سيتبع زوجته إلى المستشفى الذي ينقلونها إليه. لم تفهم عودته الهادئة إلى داخل المنزل وإغلاقه بابه وعدم خروجه من جديد. أدركت أن هناك تدبيرًا ما لا تستطيع فك طلاسمه. تذكرت الدواء الذي طلب منها أن تدسه لنعمت على مدار الشهرين السابقين. برغم أنها أخبرت سيدتها وأنها لم تدس شيئًا امتلأت رعبًا. انشلَّ تفكيرها مدة غير قصيرة وهي تتصبب عرقًا. بعد تفكير أخرجت هاتفها المحمول واتصلت برقم أم نعمت. من وسط دموعها أعادت المرة تلو الأخرى قولها لها في جزع:

- أخذوا نعمت.. أخذوا نعمت في الإسعاف.

رد فعل أم نعمت، حين تلقت استغاثة زولا، مرتبطة بطبيعة علاقة الأم والزوج. لم يتصارعا يومًا على السيطرة على نعمت، فلم تكن هناك حاجة لذلك. إرضاء نعمت المستمر لكليهما ساعد على ذلك. العلاقة لم تكن دافئة، ولكنها كانت مملوءة احترامًا. لم يحتاجا إلى أن يتقاربا أو يتحاربا، فأصبح هذا هو عنوان تعايشهما معًا. أم نعمت احترمت في عصام نجاحه وقدراته العملية احترامًا جعلها في أحيان كثيرة تتمنى لو أن ابنها، آدم، كان على درجة نجاحه. آدم لم يشب ليصبح ما تمنته. تصورت أنه سيكون عنوان نجاح مغامرتها وزواجها الذي تحدت به الأعراف. لكنه خذلها حين انتهى إلى كونه مجرد رجل عادي، ليس لديه ما تستطيع أن تفخر به من إنجازات. طالما اغتاظت وهي ترى ثراء سيد وتقارنه بكون ابنها مجرد موظف أقل من العادي يعيش عيشة الطبقة الكادحة في بلاده. طالما حاولت أن تدفعه

لأن تكون عنده دوافع وطموح للثراء، ولكنه قاوم ذلك أو قاومت «عاديته» محاولاتها. ظلت تعينه ماديًا، في الأغلب من خلال ما تمدها به نعمت. عدم سطوع آدم ظل دائمًا سببًا في حزنها وتمنيها أن تكون بها قدرة مادية لدفعه إلى صفوف الأغنياء، على الأقل ليناظر أو يقترب من رفاهية عيش أخته.

قدرته على تقييم الناس ودوافعهم أحد أهم أسباب نجاح عصام في عالم الأعمال. وقد أصاب في تقييمه لحماته حيث استقرأ أن آدم أحد أهم مداخلها. تعوَّد أن العائد يزيد مع المخاطرة. حين فكر في أن يتواصل معها بعد اتفاقه مع سيد، حسب جيدًا المخاطرة، ودقق في تقييم العائد. وجد أنه سيحتاج إلى تحييدها حين يبدأ في تنفيذ خطته. حين طلب لقاءها كان يعرف، دون أي شك، أنها ستتجاوب معه. كثيرون كانوا سيجبنون عن أن يعرضوا عليها ما عرضه، ولكنه وجد أنه يعرض عليها صفقة لن ترفضها.

telegram: @alanbyawardmsr

لم يطل حديثهما، إذ اقتنعت أن فكرته تصب في مصلحة الجميع. الجميع فائزون، حتى نعمت؛ إذ إنه سيصيبها النصيب الأكبر حين يبيع أنصبتها لسيد. هو، كما شرح لها، سيأخذ ما يحق له مقابل مجهود السنين، وهي ستحصل على ما يؤمّن لها ولآدم عيشة كريمة دونما حاجة لأن تطلب من نعمت. ستحصل على ذلك في مقابل بسيط جدًا؛ ألّا تثير ضجة حين يبدأ تنفيذ الخطة. ثم ما الضرر الذي سينال من نعمت؟ كل كلمة قالها كانت مقنعة جدًا لها فلم تجد سببًا لمعارضة مقترحه. سهّل لها القبول وهو يشير ببساطة إلى أن الموضوع لن يزيد على:

- فترة قصيرة في المصحة.. وممكن نعتبرها فترة راحة.

مكالمة زولا لم يكن مخطط لها ولا محسوبة. حين تلقتها أم نعمت وجمت قليلًا قبل أن تسارع قائلة:

- اقفلي.. هاتصرف.

فكرت سريعًا فوجدت أنها لن تستطيع السكوت. أعادت حساباتها سريعًا، وربطت الخيوط في ذهنها. انفرجت أساريرها حين أتاها الحل وكان بسيطًا جدًا. سيد جزء أصيل فيما يفعل عصام. ما عليها سوى إبلاغ سيد ورمي الكرة في ملعبه. إبلاغه أمر طبيعي والتصرف المنتظر في حالة مثل هذه.

حين اتصلت به استغرب مكالمتها غير المعتادة. أتقنت مزج الاضطراب في صوتها. ترجّته أن «يتصرف» وجعلته يعدها بأن «يطمئنها». استطاعت أن تدمع وهي تكلمه لتجسّم ما أرادت أن يكون بها من هلع. وعدها بأنه سيتولى الأمر.

وهو ينهي المكالمة، ابتسم سيد ابتسامة واسعة، وقد شعر بأنه أصبح بيده فرصة ذهبية ليحصل مراده دون حاجة لعصام!

19

علاقة بندولية هو الوصف الدقيق لعلاقة سيد بوالدة ناعومي. تأرجُح مستمر بين إعجاب مخفي في الصدر، وبغض يحسنان تغطيته في تعاملهما الرسمي. كلاهما، دون شك، معجب بالآخر ويتمنى أن يكون له، إن جاز التعبير. إعجاب أو تمني أن يكون آدم على قدر تحقُّق سيد، وأن تكون أمه على شيءٍ من أرستقراطية وأناقة أم نعمت. وفي الوقت ذاته كلاهما يُكن نوعًا من البغض نحو الآخر. ربما تكون كلمة البغض بها تزيد فيجدر وصف المشاعر السلبية بينهما بالغيرة أو ربما الأوقع وصف الاستكثار. الغيظ، والغيرة، والبغض صفات تتشارك في حرف غين يثقلها، وكتمان كليهما لها في صدريهما نحو الآخر.

سيد يمثل لها نموذجًا تمنت أن يصبح عليه ابنها آدم. ناجح وثري وذو حيثية اجتماعية بفضل قيمة حساباته البنكية. لكن آدم لم يحقق ما رجته له. غريبته لم تسمح لها بفرض إرادتها عليه. حين أنهى دراسته الثانوية لم تمكنه درجاته المقترنة بطموحاته أن يستكمل دراسته الجامعية. حلمها أن تراه في أكسفورد أو كمبريدج تحول إلى استجداء منها أن يواصل فقط من أجل الحصول على شهادة جامعية. لم يفهم تمسكها، الذي بدا مَرَضيًا لآدم، بضرورة استكمال تعليمه. لم تستطع أن توصل له الوزن الذي يعطيه مجتمعها الشرقي لحملة البكالوريوس. في مجتمعه الذي ترعرع فيه، رأي الأهل استشاري على أحسن تقدير. تجاهل دون أي إحساس بالذنب رغبتها. لم تتفهم حديثه عن اختياره عيش حياة عادية بلا توتر ولا ماديات. مثل شباب كثيرين من أهل الغرب، كان قراره أن يبحث عن وظيفة، ولو متواضعة، ويبدأ حياة بلا تعقيدات كما اختار أن يصفها. عبر السنين تحاول أن تدفعه إلى تطوير نفسه ورفع طموحاته بلا جدوى. يعيش كما اختار بعيدًا عن صراع الجري وراء المال. إنسان عادي غير مميز، ناجح فقط كونه راضيًا بما اختار بعيدًا عن الصخب. موظف استقبال في مستشفى المدينة الصغيرة على أطراف لندن. تحاول أن تُجمِّل وضعه فتعلن أنه مدير في مركز طبي معتمدة على أن لا أحد سيتكبد عناء التأكد ممَّا تدعي. رضاه واستكانته من أسباب حزن أمه المستمر؛ إذ إنها تراه أحق بأفضل ممَّا هو عليه. من وجهة نظرها أحق بما لسيد من ثراء وبحبوحة العيش. تؤمن أن ابنها، على ضيق أفقه، به أفضلية رقي ليست متوفرة لابن زوجها الأول. ومع هذا إذا طُلب من أم نعمت وصف الشخص الفاشل من وجهة نظرها لانطبق وصفها على ابنها. موجع جدًّا أن يخفق ابنك الأثير في إدراك أيٍّ من خططك له. في حالة آدم لم يتقاطع أي جزء من أحلامه مع أحلام أمه، أو ربما لم يكن لدى آدم حلم من أساسه. يأسها من حاله وعدم رضاها عن اختياراته جعلها تقرر ترك إنجلترا والعودة إلى مصر. حسبت أنها ستتبوأ هناك المكانة الاجتماعية التي تليق بها.

قرار العودة ازداد حسنًا بحسن رعاية نعمت لها. لم تبخل عليها ولم يمنعها أبوها من صرف الملايين على أمها عبر السنين. لم تشعر ولو للحظة أنها تستغل ابنتها التي هجرتها رضيعة. على العكس اقتنعت الأم بأن وجودها إلى جانبها هو الأفضل للشابة التي كانت في بداية دراستها الجامعية وقت رجوعها إلى مصر. قررت أن مهمتها إعادة تشكيلها وتنقيتها من شوائب تربيتها الخالية من أصول الأرستقراطية.

سيد طالما تمنى أن تكون أمه على شاكلة أم نعمت. يحب طريقة كلامها المنمقة، ولبسها الذي لا تخطئ في أيٍّ من تفاصيله. وفي الوقت نفسه يشعر دائما أنها تراه في موقع أدنى منها ومن دوائرها. من صغره وهو يحاول أن يثبت لها عكس ذلك، ولكنها تستمر في النظر إليه بعدم تقدير وكثير من الاستهانة. حين تجمعهما المناسبات يحاول إبهارها بثرائه قولًا ومنظرًا، لكنها دائمًا تحبطه بتجاهل مقصود. تستطيع دائمًا أن تشعره بأنها لا تستسيغ ملبسه مهما غلا، ولا تطيق حديثه مهما حاول أن ينمقه. يوقن أنها ترى ذوقه في العموم ذوق مَن تتعمد الإشارة إليهم، في حضوره، بالأغنياء الجدد الذين يدفعون الآلاف المؤلفة دون معرفة بأصول الاختيار.

حين استغاثت أم نعمت بسيد يوم نقلها للمصحة، وبسبب طبيعة علاقتهما، فكر سيد جيدًا فيما وجب عليه فعله. بالطبع كان على علم بما يسعى إليه عصام وإن لم يتدخل في أي تفاصيل، عن عمد. الاتصال أو الاستغاثة التي تلقاها جعلته يفكر في إعادة حساباته. حين يحتاج إلى اتخاذ قرار يلجأ إلى توجيه أعطاه إياه والده حين بدأ العمل معه: «لمّا تحتاج تاخد قرار شاور اللي حواليك.. ما تفكرش لوحدك». استفزته النصيحة وقتها إذ لم يعرف إن كان أبوه يراه غير قادر على التفكير أو أنه أرعن مثلًا، أم إنها من تلك الحِكم العابرة للأزمنة. يكاد يجزم، منذ بدأ في اتباع نصيحة أبيه، بأنه بارع في انتقاء أفضل الخيارات المطروحة. لا قدرة له على طرح البدائل، ولكنه يتألق في اختيار أحسنها حينما تُعرض عليه. وأفضل مَن يلخص المواضيع ويمده بأحسن البدائل، ظل، دون منازع، محاميه عبد الحميد. لم يكن محاميه فقط، بل صديق طفولته الذي لم تفته مغامرة في حياته إلا وكان شريكًا أصيلًا فيها. درس الحقوق ليتبع خطوات أبيه الذي تبوأ أعلى مناصب القضاء. بعد فترة قصيرة عملها في النيابة استقال وأسس مكتبه الخاص معتمدًا على سيد وأبيه كأكبر زبائنه. عبد الحميد بارع في تطويع القوانين لمصلحة موكليه، وخبير في اللؤم والخبث الحياتي. لا يأخذ أي أمر من مظهره، ولكنه يبحث ويحفر من أجل الوصول إلى الدوافع، وما يمكن أن ينجلي من بواطن ما يعتبره أغلبية البشر أمورًا عادية.

كان على علم باتفاق سيد مع عصام بخصوص شراء نصيب نعمت في الشركة. حين أخبره

سيد بما حدث، وبمكالمة أمها واستغاثتها به، لم يفكر طويلًا قبل أن يطرح عليه بديلًا واحدًا فقط دون غيره.

- نخرج نعمت هانم من المصحة فورًا.

ثم بدأ في شرح منطقه:

- فرصتك للسيطرة التامة.

بالتدخل لإخراج أخته من المصحة سيفوز سيد بجائزتين. الأولى هي حرق عصام كورقة وإخراجه من المعادلة تمامًا. الثانية أنه، أمام أخته وأمها، سيصبح رجلهما ومنقذهما من أطماع الآخرين. سيغدو محل الثقة ومرجعهما، وبالتالي سيستطيع في الوقت المناسب تنفيذ مخططه برضائها ودون مقاومة. شرح لموكله أن خطة عصام تحتاج وقتًا طويلًا للتنفيذ نظرًا لصعوبة إجراءات الحجر. شدد على أنه، حتى لو أصبح الولي عليها، فإن تصرفات عصام ستكون تحت المراقبة والمساءلة القانونية من الجهات الرقابية، ولن يكون التصرف بالبيع بالسهولة التي يظنها. أعجب سيد بأن مستشاره وصل إلى ما فكر فيه. ارتاح هذه المرة إلى أنه وصل لحل قبل أن يستشير. لم يكن قد تطرق إلى تفاصيل ما يجب عمله، ولكنه وجد هو الآخر ما حدث فرصة للتخلص من زوج أخته. اقتنع سيد بمشورة محاميه وأعطاه الضوء الأخضر للتصرف. لم يُعنَ طوال حياته بالتفاصيل قدر اهتمامه بالنتائج.

اللطيف أن أم نعمت وصلت للحسبة نفسها. اتصالها بسيد، ولو مرغمة بحكم تبليغها بما حدث، يبعد عنها شبهة موافقتها، ولو ضمنيًا، على ما أتاه عصام. بتحركها مع سيد سيصبح زوج الابنة خارج دائرة الثقة. تعلم جيدًا أنها ستستطيع تجنيب سيد مع الوقت بعد خروج نعمت. تعرف ابنتها ككتاب مفتوح، وتدرك تمامًا أنها بعد مرورها بهذه الأزمة لن يكون لها سند سواها. وبالفعل بدأت في تنفيذ مخططها لمَّا أصرت، عندما أقامت نعمت عندها، أن تلغي توكيلها لأخيها. ظلت تكرر أن لا أحد جدير بثقتها بعد ما حدث. لا أحد سوى أمها طبعًا. تذكرت مقولة أن الأم تستطيع أن تأخذ مكانة أي أحد، لكن لا أحد يستطيع أن يحل محل الأم.

حين علم بذهاب المحامي إلى المصحة والإجراءات القانونية التي اتخذها، كان أول ما فعله عصام هو الاتصال بسيد:

- مش إحنا اتفقنا يا سيد؟

- أنا اتفقت أشتري نصيبها يا عصام.. مش أطلعها مجنونة.. تفتكر إني أرضى يتعمل في أختي كدة؟

لم يطل حديثهما بعدما استمر سيد متمسكًا بموقفه «الأخلاقي». أدرك عصام أن مَن ظنه شريكًا في مؤامرته قد اختار أن يسلك طريقًا آخر منفردًا. أصبح عليه أن يعيد التخطيط من جديد. عجز عن التفكير مع توالي الضربات. خرجت نعمت إلى بيت أمها ورفعت عليه قضية خلع. استسلم لما وصل إليه الحال. قرر أن يبتعد وينسحب. جهز نفسه لأن يعلن عن زيجته السرية وابنه. ثم عادت نعمت وأعطته التوكيل وتنازلت عن طلب الانفصال، فعاد يخطط من جديد.

20

منذ تشخيص الدكتور عمر لحالتي وأنا في حالة من الممكن وصفها بالحالمة. ليست حالمة بالتعريف الرومانسي، ولكن حالمة بمعنى أن الواقع والخيال في حياتي أصبحا غير قابلين للفصل. ربما الوصف الأدق أني ساهمة تائهة لا قدرة بي على التركيز. أسرح في الشخصيات التي يحتويها جسدي، وأستعيد مواقف من الماضي، أصبحت قادرة على معرفة أيٍّ من شخصياتي تحكمت فيّ حينئذ. أيقنت مثلًا أن موضوع دعوى خُلع عصام قادتها ناعومي. برغم قلقي من هذا الموضوع فقد وجدت ارتياحًا لدى الدكتور عمر بخصوصه. وجد عرضًا من أعراض مرضي جليًا في نسياني رفع هذه الدعوى. ليس نسيانًا، ولكنه ذاكرة اختيارية احتفظت بها ناعومي لنفسها ولم تشارك بها الأخريات. تفاعلت مع الحماس الذي أبداه طبيبي فأمعنت في تأكيد نسياني التام لرفعي الدعوى.

بعد أن تنازلت عن الدعوى انجلت لي كثير من التفاصيل المتعلقة بالموضوع. الانفصال عن عصام فكرة راودتني كثيرًا قبل أن يأتي فعلته الشهيرة. نعم، فكرت أكثر من مرة في طلب الطلاق. فكرت وإن لم أجرؤ يومًا على أن أهمس بالفكرة لأحد.

أول مرة كانت بعد سنين من محاولات الحمل واللف على الأطباء. كنّا في لندن وقتها عند واحد من أشهر إخصائيي التلقيح الصناعي. نظر إليّ أنا وعصام مليًا قبل أن يعلن لنا أنه لا أمل. كفن أراد أن لا يتحمل أحدنا الذنب وحده أخبرنا بأنه بالإضافة إلى كسل حيوانات زوجي المنوية، فأنا من الحالات شديدة الندرة التي تتوقف عن إنتاج البويضات في منتصف الثلاثينيات. لا أتذكر مشاعر صدمتي بقدر ما لا أستطيع نسيان، حتى اليوم، نظرة البؤس التي علت وجه عصام. ظلت الأصوات تتناقش بداخلي مدة طويلة.

- من حقه يحلم بالخِلفة.

- هو عاجز مثلي بالضبط.. مش أنا السبب لوحدي.

- عنده أمل ولو ضعيف.

- الناس مش بتتجوز علشان يخلفوا وبس وإلا يبقى الجواز موضوع حيواني أوي.. الجواز صحبة وشراكة حياة.. وبعدين لو هو عايز كدة يبقى يطلب.

- يعني علشان خجلان يطلب نحرمه من إنه يكون له أولاد.

- لو العيب منه كنت هافضل معاه، ولو كنت ساعتها فكرت أسيبه كان المجتمع هايقول عليّ ندلة وقليلة الأصل.

- الست غير الرجل.

- مشاعر الأمومة غريزة أقوى بكتير من الأبوة.

كما يقولون، الزمن هو أفضل علاج. تخفت المناقشات وتأخذني الحياة في مناحيها فتتوارى صدمة الحرمان من الأطفال خلف شواغلي اليومية. والحق أن عصام أحسن التعامل مع الموقف فلم يشعرني بحزنه أو إحساسه بالفقد. ربما أجاد أكثر من اللازم إخفاء مشاعره، أو ما اكتشفت فيما بعد أنه خطط له.

يقولون إن للمرأة حواسا زائدة عن الرجل. تشعر بما يحاول إخفاءه مهما حاول. لم تكن بي ذرة شك في أن هناك أخرى تشاركني زوجي. كيف عرفت؟ من البريق الذي احتل عينيه، ومن سنا شباب ملأ وجهه، وشدة مفقودة عادت إلى جسده، مصاحبة اهتمام غير معتاد بمظهره. أكاد أجزم بإحساس ذنب في عينيه كلما نظر إليّ. برغم ثقتي فيما شعرت به، قررت أن أقطع الشك باليقين. استدعيت مدير الأمن بالمجموعة. ضابط شرطة متقاعد أهم شيمه أنه يحفظ مكانة الرُتب، وأنا بالنسبة له رُتبة أعلى من عصام. طلبت منه التحري في هدوء دون جلبة. حين عاد مؤكدًا زواج عصام بشابة في العشرينيات صرفت له مكافأة بعد أن حذرته من أنه سيفقد وظيفته لو علم أحد بالخبر. نسيت حينها احترامه للرتب الذي أكبرته فيه. كان يجب أن أعرف أنه سيبلغ والدي، وربما أيضًا سيد. في الأغلب تبليغهما كان بغية مزيد من المكافآت.

ناعومي تملكها الغضب:

- يروح في داهية.. هو من سكة وأنا من سكة.

ردت عليها نعيمة:

- حقه الشرعي.. ما غلطش.. بالعكس ده واحد مش عايز يغلط.

- وحقي إنه يقولّي وأنا أختار.

- ومين هايرضى بواحدة بالحالة دي؟

- برضه الجواز له أسباب كتيرة أهمها المودة والرحمة.. والصحبة!

يعلو صوت تاعومي من جديد:

- وبعدين موضوع التعدد ده يرجعنا لزمن الحريم.. أنا مش محتاجة له في حاجة.. أنا مش أقل منه في حاجة.. في المجتمعات المحترمة لغوا الكلام ده.

راجعتها نعيمة بهدوء:

- ده شرع ربنا.. وبعدين المتقدمين بتوعك دول عندهم بلاوي.. مش دول اللي محللين الشذوذ؟

- كل واحد حر ما دام مش بيعتدي على حريات حد تاني.

- حلو، يبقى لو اتنين ستات موافقين يتشاركوا في رجل يبقى بتوع الحريات يزعلوا بأمارة إيه؟! واللا الحرية مكفولة بس في الحرام؟!

لا تجد ناعومي ردًا مناسبًا لمنطق نعيمة فتسكت. تستمر المناقشات قبل أن يستقر رأي الأغلبية على قبول الوضع. يصلن لقرارهن من منطلق أن رج السفينة ليس البديل الأفضل. قرارهن لا يُذهب الغصة التي بقلبي. لا أستطيع أن أغفر خيانته. أقشعر حين يلمسني وأود لو أقدر أن أغرس أظافري فيه فأجرحه مثلما جرح روحي. وبرغم ذلك أجد نفسي مستمرة في حبه. حبي له غير كامل بعد أن أصبحت لي شريكة، لكنه برغم كل شيء مَن أجد فيه السند. أظن أنني نجحت في خداعه فلم يعرف أنني أعلم ما أتى. أصبر نفسي بأن خديعتي في الحقيقة إحسان أن جعلت الحياة بيننا تستمر. يقتلني كل حين شعور أنني أصبحت «الأخرى». أثور للحظات وأقرر الرحيل، ثم أعود فأستكين خوفًا من التغيير وانقلاب في حياة تعودتها. تؤرقني فكرة أن وحدة قد تُفرض عليَّ إن لم أجد بديلًا. أخشى أن أكون قد وصلت إلى سنٍّ لا تسمح لي بالبدء من جديد.

طول عمري معه أكبر فيه أنه لا يحب أن يخطئ. أصبر نفسي بأنه اختار الزواج فقط من أجل أن تكون لديه فرصة التناسل. ظللت أتابع زيجته الأخرى. ذهب بها إلى الأطباء أنفسهم الذين زرناهم معًا، في مصر وخارجها. نجحوا في تنشيط منوياته الكسولة. يوم الولادة تحجج بأن لديه اجتماعات في مدينة أخرى. لم أستطع التوقف عن البكاء حين علمت أنهما رزقا بولد. راودتني أفكار وخيالات بغيضة. وددت لو أنها ماتت في الولادة وأنه جاءني يحمل ابنه كي أربيه. تعجبت أن أتمنى مثل هذا لواحدة رأيتها عن بُعد وتمنيت أن أكون مكانها. لم تستطع ناعومي أن تثور بعد أن تملكها شعور عجز لا قدرة لها على تجاوزه. لم يعُد لديَّ حل سوى القبول. قبول صامت عاجز لوضع لم تعُد بي قدرة على رفضه.

استمررت على تقبلي خمس سنوات. حتى يوم أخبرتني زولا بموضوع المهدئ الذي طلب منها دسه في شرابي، قدمت نعيمة حسن النية:

- ما هو قالها إن صاحبه الدكتور النفساني قاله يعمل كدة علشان أبقى هادية.

ردت عليها ناعومي:

- لو عايز يعمل كدة ياخدني لصاحبه يشوف حالتي وبعدين يبقى يوصف دوا.

أقرر أن «أفوت» الموضوع وآمر زولا بأن تجاريه. زولا ولاؤها لي دون منازع. تُقدّر احتضاني لها. ثم إنها تعلم أنها حين تحصل على تأشيرتها الأوزبية لن أتركها وسأمدها بأي أموال تحتاجها. لم أتخيل لحظة ما كان يخطط له. حتى وأنا في المصحة لم يخطر ببالي أنه يريد أن يحجر عليّ. فقط حين سمعت ذلك على لسان المحامي، يوم جاء لإخراجي، فهمت ما استهدفه عصام. فهمت أنني في نظره حساب في البنك. حين استوعبت ما حدث وجدت أنني لا أستطيع أن أفكر إلا في شيءٍ واحدٍ دون غيره: الانتقام!

21

في حالات اضطراب الهوية التفارقي تكون هناك شخصية من شخصيات المريض هي الظاهرة أو المتحكمة كما نُطلق عليها. التحكم هنا معناه الأقرب أنها الشخصية المسيرة للأمور. في حالة نعيمة السيد هذه الشخصية هي نعمت. هي الشخصية التي تثق فيها الشخصيات الأخرى، وهي التي تكبح جماح الحالة وتجعلها تظهر بصورة طبيعية أمام مجتمعها. لا يخفى عن نعمت أفكار وأفعال نعيمة وناعومي، وهي مَن لديها في أغلب الأحوال الذاكرة المشتركة لهن جميعًا. ربما يخفى عنها القليل مثل موضوع الخُلع الذي تزعمته ناعومي وحدها وسقط من الذاكرة الجمعية. على مدار الأشهر الماضية استطعت، ومعي لورا، أن نكتسب ثقة نعمت، واستطعنا كذلك أن نستدعي الشخصيات الثلاث ونتحدث مع كل منهن حين الحاجة. حتى نوني أصبحنا قادرين على جعلها تتحدث بدلًا من البكاء باستمرار. نرى نوني باعتبارها أحد أهم مفاتيح العلاج. العلاج لهذه الحالات بدايته دائمًا عند الوصول للحظة ولادة وانبثاق الشخصية. لورا ترى أن تلك الطفلة الباكية هي أولى الشخصيات التي احتمت مريضتنا بوجودها من أذى تعرضت له. تؤمن كذلك أن الأذى غالبًا كان أذى جنسيًا وليس مجرد أذى جسدي. قناعة زوجتي بما وصلت إليه مبعثه قراءاتها لأبحاث عن مرض نعمت، وحالة باشرتها أثناء عملها في أمريكا. الموضوع حساس جدًا، بالذات وأن الجنس في مجتمعنا الشرقي من الموضوعات التي نجتنبها. لكني ومعي لورا دءوبان على محاولة الكشف عمَّا أوجد نوني وما أصابها. من مفارقات تلك الطفلة الباكية أنها حين تتكلم تستخدم ضمير الغائب، إذ تشير إلى نفسها باستمرار بلفظة «هي» وكأنها تتحدث عن أحد لا يخصها.

في جلسة اليوم، وبعد أن اطمأننا من نعمت على أحوالها، طلبت منها أن نتحدث مع نوني. زاغت عيناها وسرت بجسدها رعشة تبعها أن اتخذت وضع الجنين والتصقت بلورا.

- إنتي كويسة يا نوني؟

أصبحنا معتادين على نظرتها الطفولية وهي ترفع رأسها لترد:

- أيوة هي حلوة.

بادرتها بسؤالي:

- مش عايزة تحكي لنا إيه اللي بيخليكي تعيطي؟

- نوني مش عايزة تحكي.

سكتت ثم أضافت:

- علشان بطنها بتوجعها لما بتحكي.

رددت عليها قائلًا:

- طيب احكي لنا اللي حصل قبل الوجع.

زاغت عيناها وهي ترفعهما نحو لورا مستغيثة. ضمتها زوجتي إليها فانكمشت في حضنها وهي تضم ركبتيها إلى صدرها وتحشر يديها بين فخذيها. همست قائلة:

- عمتها هي اللي أخدتها اليوم ده.

صمتت من جديد قبل أن تضيف:

- عمتها وستها أخدوها هناك.

- هناك فين؟

من هنا أخذتنا طفلة، ما بين الخامسة والسابعة في تقديرنا، إلى ماضٍ لم أتصور مدى الألم الذي غلفه. لعل ما حكته لنا الأكثر حزنًا فيما سمعته طوال ممارستي لمهنتي.

البسمة الطفولية التي ارتسمت على ثغرها وهي تبدأ السرد لم تنبئنا بمآل سردها. هي، كما تحب أن تشير لنفسها، ابتهجت لمّا أيقظتها عمتها ذلك الصباح وساعدتها على ارتداء الثوب الأبيض المزركش بخيوط ذهبية رفيعة. احتضنتها جدتها حين رأتها وأطالت في ضمها. تباهيا بجمالها وهما تدعوان أباها إلى رؤية «العروسة» قبل أن تنزلا بها. في الطريق طافت بذهنها خيالات كثيرة حول «الفسحة» التي وعداها بها. أملت أن يكُنّ في طريقهن لحديقة الحيوان التي أحبت زيارتها مع عمتها وشقيقها الأصغر قبل أيام. كنّا، لورا وأنا، في ذهول من كم التفاصيل التي فاضت من فمها. تحكي وكأنها تصف أحداثًا تجري أمام عينيها وليست ذكريات اختزنتها. كانت سعيدة أن اختصتاها هي بالنزهة، وأنهما ثهرتا شقيقها حين ألح ليرافقهن. تذكرت جيدًا أن «هي» كانت مستمتعة كونها محط اهتمامهما وحدها دون شريك.

انخفض صوتها وتسارعت أنفاسها مع بداية مقطع وصولها إلى المكان الذي قصدنه. بعد أن غادرن السيارة مشت بين الاثنتين ممسكة بيديهما. من وصفها أدركت أنهما لا بد وأنهن في أحد أزقة القاهرة الضيقة. تحدثت الحوائط الرمادية الداكنة التي أحاطت

بجوانب المكان. تجعد أنفها الصغير وقد خالطته روائح القمامة الملقاة على الجنبات. حين نظرت إليهما مستنجدة، تعجبت من عدم اكتراث جدتها وعمتها للقذارة التي أصبحت تحيط بهن.

- الريحة كانت وحشة أوي.. وهي ما حبتش اللي خدوها له.

دخلتا بها إلى شقة صغيرة. تذكرت أن الرجل الذي فتح الباب، ولم تحبه، سارع بالتأكد من غلقه فور دخولهن. دعت جدتها للرجل أن يفتح عليه ويكرمه ويزيده من ثواب ما يفعله. احتارت لمَ أتيتا بها إلى هذا المكان وعند هذا الرجل، ولكنها لم تستطع أن تسأل. التصقت بعمتها تحتمي بها من مجهول جعل نبض قلبها الوجل متسارعًا. عمتها الطيبة ضمتها وطبطبت عليها، ثم همست في أذنها بصوتها المملوء حنانًا:

- نعيمة بنت كبيرة، صح؟ والبنات الكبيرة مش بتعيط ولا بتصرخ.. صح؟

أومأ الرجل برأسه نحو الأريكة التي في نهاية الصالة التي وقفوا بها. سحبتها جدتها من بين يدي عمتها وأجلستها عليها. لم يمضِ وقت طويل قبل أن ترفع الجدة ساقي الصغيرة لتمددهما على الأريكة. ظلت عمتها ناحية رأسها تربت جبهتها وهي تردد بصوت خفيض كلمات اعتادت «هي» أن تسمعها تقولها وهي تصلي. عاد القميء يتصدر المشهد بعد أن كان قد اختفى عن نظرها. رأته يومئ إلى الجدة التي سارعت بإبعاد ساقي الطفلة عن بعضهما. أدركت حينئذٍ أنهما لم يُلبساها ملابس داخلية هذا الصباح. أحست بعريها تحت الثوب الأبيض المزركش بخيوط الذهب. لمحت بين أصابع يد الرجل جسمًا لامعًا. أرادت الصراخ فامتنعت حتى لا تغضب عمتها. امتنعت لتثبت أنها كبيرة، والكبار لا يصرخون. نزلت يد الرجل، الذي لم تحبه، فلم تعُد ترى ما كان يمسكه ويلمع. أحست بشيءٍ باردٍ يحط ما بين ساقيها. تبع ذلك سكون قبل أن تشعر بشيءٍ يشق جلدها. لم يعُد ما يحك ما بين ساقيها باردًا. وبدأت تدرك أنهم يستقطعون قطعة من جسدها. تذكرت أن: «نعيمة بنت كبيرة، صح؟ والبنات الكبيرة مش بتعيط ولا بتصرخ.. صح؟»

تعالت على ما أصبح بها من ألم. تعالت حتى أصبحت مثلهم تمامًا، شاهدة على ما يحدث. تنظر فترى نعيمة، الكبيرة التي لا تصرخ ولا تبكي، ملقاة على أريكة في حجرة حقيرة، ورجلًا قميئًا يجتز قطعة من جسدها. نعيمة لا تبكي، ولكن نوني طفلة صغيرة، وستظل طفلة تستطيع أن تصرخ وتبكي. تتذكر جيدًا كيف تلطخ الثوب الأبيض، الذي أضحت تكرهه، باللون الأحمر. ولا تنسى كيف ظلت تنزف، دون أن تئن، طوال سكة عودتهن إلى المنزل بعد أن غادرن محل القميء.

النظرة التي تملكت وجه نعمت، أو نوني، وهي تروي مأساتها، لم يضاهها سوى الهول الذي تسيد وجه زوجتي لورا. لم أرَها تنتحب من قبل مثلما رأيتها وهي تستمع إلى تفاصيل الختان التي شاركتنا إياها طفلة، في نحو التاسعة من عمرها، وقد تقرفصت في حضنها. لم أتبين أيًا منهما كانت الرعشة التي بها أشد. كنت أنا نفسي بي هزة من فظاعة ما سمعت. تخيلت الرعب الذي أحاط بالمسكينة وهم ينزلون بها إجرامهم.

بعد أن هدأت وكفكفت دموعها آن أوان انصراف نوني. سحبت يديها من بين فخذيها، تجمّدت لحظات. بدأت في فرد جسدها من الوضع الذي كانت عليه طوال حكيها. حين عادت نعمت لم تتوقف دموعها. أدركنا أنها أصبحت تعرف ما مرت به الباكية الصغيرة، وأن الذكرى أصبحت ملك الجميع. بقدر الغصة التي كانت في صدري من الألم الذي عانته الصغيرة، بقدر ما كان بي شيء من السعادة أن أصبحنا على بداية طريق شفائها. الهدف من جلساتنا وخطة العلاج هو الوصول للاندماج، كليًا كان أو جزئيًا. شخصية تلو الأخرى تندمج مع وفي الشخصية المتحكمة أو الرئيسية. تصبح الشخصية المندمجة جزءًا من قوام المريض، وتصبح ذكرياتها وتصرفاتها وكل ما يخصها خيوطًا في نسيجها الإنساني.

بعد انصراف نعمت احتجت وقتًا طويلًا لأداوي الصدمة التي أصابت لورا. لم أرَها من قبل في مثل حالة الذهول التي كانت عليها. لم تستطع أن تصدق الهمجية والوحشية التي يُعرّض بعض أهلنا بناتهم لها. سألت إن كان قانون مصر يُسقط هذه الجريمة بالتقادم. فاجأتها بقولي إن وقت تعرضت نعمت للختان لم تكن هذه الفعلة مجرّمة. حين استعادت زمام نفسها ذكرتني بشيءٍ يبدو أنه فاتني. أشارت إلى أن نوني قبل أن تمضي قالت لنا:

- في حاجة تانية بتوجع بطن نوني!

22

- ناعومي؟

انتبهت لنداء لورا عليّ. كنت قد سرحت بحثًا عن إجابة لسؤالها الذي سبق:

- ما تاريخ أول ذكرياتك؟

لا يهمها من السؤال سوى معرفة تاريخ مولد شخصيتي وظروف هذا الميلاد، أعلم ذلك. تأكدت كعادتي أن ظهري مفرود وساقي مضمومتان إلى يساري وذقني مرفوع دون تكلف. أتفحص أظافري جيدًا قبل أن أرد عليها:

- صيف 1996.. في لندن!

أول مرة أسافر خارج مصر، وأول مرة أركب طائرة، كانت أسبابًا كافية لمراهقة أن تكون في قمة الإثارة والسعادة. لكن داعي سعادتي الحقيقية كان دعوة أمي لي لزيارة بلد إقامتها. دعوة عنت لي اعترافها بوجودي، تمامًا كما في السياسة حين تعترف دولة كبرى بأخرى صغيرة لا ثقل لها. من يوم حُدّد موعد السفر وحتى لحظة ركوبي الطائرة وأنا أحلم. أتصورها تنتظرني عند خروجي من المطار. ربما تحضر باقة من الورد تعطيها لي قبل أن تطيل احتضاني لحظة اللقاء. باقة الورد قد تكون استزادة، ولكنها بالتأكيد ستأخذني في حضنها.

حين خرجت من صالة الوصول استمررت في التلفت حولي أبحث عنها. لم تكن ضمن المستقبلين. لم يكن هناك كثير من المستقبلين على أي حال. تذكرت ما يُحكى عن برود الإنجليز فأدركت أن استقبال المسافرين ليس من أولوياتهم. انتظرت برهة قبل أن أخرج الورقة التي كتبت عليها عنوان المنزل، وتذكرت أنها ربما أشارت أن آخذ التاكسي حين أصل. وقعت في غرام لندن وأنا أتطلع إلى تفاصيلها من شباك السيارة طوال الطريق. حين وصلت، وقبل أن أرن جرس الباب، تأكدت مرة أخيرة من هندامي. حين فتح لي آدم هز رأسه قبل أن يستدير ويعود إلى الداخل دون أن ينطق. ظلت أمي جالسة على مقعدها لمّا رأتني، فقط قالت بصوتٍ هادئ:

- الحمد لله على السلامة.

الأيام الأولى لزيارتي لم تماثل أيًا من تصوراتي. لم تحتفِ بي كضيفة. تذكرت كم ضايقتني إشارات عمتي قبل سفري بأنني لن أجد دفئًا وترحابًا من أمي. عزوت كلامها إلى أنها بالتأكيد بها غيرة. بل ظننت أنها خائفة من توطد علاقتي بأمي. كان يجب على عمتي أن تعرف مدى معزّتها لديّ وأنها دائمًا ستظل قريبة من قلبي. لكنها لا بد وأن تكون متفهمة

رغبتي في التقرب من أمي بعد سنين البعاد التي طالت. يبدو أنها كانت على حق حين حذرتني من الإفراط في التمني فيما يخص والدتي. فقد تركتني أستكشف المدينة وحدي دون تدخل. أذهب يومًا إلى متحف، وآخر إلى التسوق. تمنيت لو أنها صحبتني إلى شارع أكسفورد واختارت لي ملابس على ذوقها الذي أحبه. اجتهدت أنا في اختيار ما يعجبها. أبي أجزل في إعطائي جنيهات إسترلينية وأوصاني ألا أبخل على نفسي بشيء: «اشتري اللي نفسك فيه». كل مساء وبعد تناولنا العشاء، لم تبدُ بها رغبة في سماع ما فعلته في يومي. تفهمت أن ذلك جزء من محاولتها إشعاري بأني لست ضيفة وأني صاحبة بيت. حاولت إقناع نفسي أنها تتعامل على طريقة أهل البلد التي هاجرت إليها. برغم ذلك تمنيت كل ليلة قبل أن أخلد للنوم لو أنها تخلت عن شيءٍ من هذا البرود. قررت أن أحاول من ناحيتي. أجتهد في جرها للحديث فأجد ردودًا مقتضبة. تُكثر من انتقاد مظهري وأفكاري. كم وددت لو أنها يعجبها أي شيءٍ يخصني. قررت ألا أيأس فاستمررت على دأبي في محاولة التقرب منها.

في الوقت ذاته لاحظت أن آدم يلازمه دائمًا صديقان. ثلاثتهم شقر، أجسادهمَ النافرة لا تتوافق مع وجوههم المملوءة بحبوب المراهقة. تغاضيت عن نظرات آدم وصديقيه المستكشفة. لُمت نفسي أن تحرجت ممَّا شككت أن تكون أعينهم تحمله. ذكَّرت نفسي بأن آدم أخي ولا يمكن أن يسمح لصديقيه أن يشتهياني.

يبدو أن محاولاتي في التقرب من أمي نجحت، إذ قررت بعد ثلاثة أيام من وصولي أن تأخذني لمشاهدة مسرحية موسيقية من التي تشتهر بها مدينة الضباب. كانت عن حياة ألفيس بريسلي. استمتعت بأمسيتي معها واستمتعت أكثر بقربي منها. قرب صامت بعض الشيء، ولكنه ممتع على أي حال. بعد العرض طلبت مني أن أعود إلى المنزل لأنها على موعد للعشاء مع صديقاتها. تمنيت لو أخذتني معها لتعرف صديقاتها عليّ، ولكني بالطبع أذعنت لأوامرها.

في المنزل وجدت آدم وصديقيه، كالعادة. حييتهم ودلفت إلى غرفتي. لم يمر وقت طويل قبل أن أفاجأ بنقرةٍ خفيفةٍ على بابي وشقيقي يدعوني، بلطف، لأنضم إليهم. اعتراف جديد بوجودي، سعدت به. كانوا جالسين أمام التلفزيون يشاهدون فيلمًا. أوسعوا لي مكانًا على الأريكة وسطهم. ترددت قبل أن يشير لي آدم مرة أخرى أن أجاوره. تلاصقت أجسادنا في جلستنا. بعد قليل ازداد انزعاجي لمَّا لاحظت زجاجات جعة فارغة على المنضدة أكدت شكوكي التي كان مبعثها رائحة الكحول التي اختلطت بأنفاسهم.

أصبحت قلقة من الموقف. قررت أن أعود إلى غرفتي. حاولت الوقوف فوجدت آدم يشدني كلما حاولت. صديقه الذي جاورني من الناحية الأخرى وضع يده على كتفي فثبتني

في جلستي. شعرت بضربات قلبي المتسارعة وأنا مستمرة في محاولة القيام. شعرت بالدم يندفع في عروقي والعرق يتصبب من جبيني. لا أدري كيف ومتى، ولكني وجدتهم وقد شدوني وألقوني على الأرض. أخي الصغير ظل جالسًا مكانه دون حراك. ثبّت أحد صديقيه يديّ إلى جانبي في حين وثب الآخر فوقي ومال بوجهه نحو وجهي يحاول تقبيلي. أشحت بوجهي مرة واثنتين وثلاثًا وأنا أصرخ. نظرت نحو آدم أستجديه أن يتدخل. لم يحاول أن يشيح بوجهه عني، بل ظل شاخصًا نحوي بنظرة باردة. وجدت صديقه الذي اعتلاني يمسك وجهي بيده ويميل عليّ من جديد. طبع قُبلة فوق شفتيّ فلم أملك سوى أن أعضه. صرخ صرخة مكتومة وتبعها بصفعة على وجهي وعاود تقبيلي. نظر إليّ وهو يقول بغضب:

- أليس هذا ما تريدين؟ اليس هذا ما تردنه جميعًا؟

صرخت وبدأت في محاولة تخليص يديّ ورجليّ. تطورت الأمور إذ بدأ الجاثم فوقي في فك أزرار قميصي. ازدادت مقاومتي ولم أدرِ سوى وقد حررت ساقي اليمني، وبكل ما أوتيت من قوة ركلته بقدمي في ظهره فعلا تأوهه. سمعت صوت تقطيع قميصي ومن بعده نزع حمالة صدري. شعرت بيدٍ تداعب ثديي العاريين. عدت أنظر لآدم فوجدته ينظر إليّ بلا اكتراث وهو يرتشف من الزجاجة التي بيده. بعينيه نظرة فارغة وكأن ما يحدث لا يخصه، أو ربما كأنه غير موجود من أساسه. على وجهه تجلى البرود الذي يشتهر به الإنجليز. دفعت مَن أصبح يلامس صدري بيده بكل ما أوتيت من قوة فانقلب على ظهره. لا أعرف كيف حررت يدَي ممَن كان يثبتهما، ولكني شعرت بقوة تسري في جسدي. نشبت أظافري في وجهه لمّا حاول إمساكي من جديد. شعرت بدمائه التي سالت من وجهه تلطخ أظافري. لا أعرف من أين استمديت القوة ولا كيف أصبحت متسيدة الموقف. وجدت أحدهما ينئن وهو ممسك وجهه الدامي، والآخر يتأوه من ضربة قدمي وقد أمسك بموضع ذكورته. كانا وهما مرميان على الأرض يسبان ويلعنان بألفاظ خارجة. استطعت الوقوف وجريت حتى وصلت إلى حجرتي فأحسنت غلق بابها. أسندت ظهري إلى الباب ودموعي منهمرة لا أستطيع وقفها. بعد قليل سمعت آدم يتوسل إليّ معتذرًا. ظل يستجديني أن أبقي ما حدث بيننا. في هذه اللحظة شعرت بأني لست جزءًا من الأحداث وأن شيئًا لم يحدث بي. نظرت إلى الدماء التي كانت لا تزال تقطر من أظافري وأنا أسمع صوتي يعلو صائحة بألفاظ غوغاء الإنجليز:

- غور من وشي يا بن الكلب!

استمر في محاولاته لاسترضائي وطلب الصفح. استمررت أنا في سبّه بما لم أتصور يومًا أن بي قدرة على نطقه. بح صوته وقد استمر في اعتذاره. قررت ألا أرد عليه فانصرف بعد أن فقد الأمل في أن أقبل توسلاته. قضيت ليلتي مستندة إلى باب الحجرة. أتذكر تعلق

نظري بأظافري التي خدشت وجه صديق آدم. لا أعرف إن كنت استطعت نومًا. مع بزوغ النهار عزمت على أن أحكي لأمي ما حدث. لا بد أن تعرف فعلة ابنها القذرة. لا بد أن تعي أن آدم مريض. وهل من مرضٍ أسوأ من أن يحاول الاعتداء على أخته وأن يعاون أصدقاءه على ذلك. راجعت عدة مرات ما سوف أقوله لها وكيف سأخبرها.

حين خرجت من غرفتي شعرت بأنها في انتظاري. لا بد أنه سبقني وحكى لها. قررت أنني لن أقبل اعتذاره وسأصر على رفض ما حدث مهما تأسف. بدأت حديثي فقاطعتني:

- آدم حكى لي.

سكت ففوجئت بها تلومني:

- إنتي الغلطانة.

أصبح بي ذهول. عجزت عن الرد وأنا أسمعها تلومني. قالت إن شيئًا من هذا لم يكن ليحدث لو أني لم أخرج لأجالسهم. كررت أنني لا بد وأن لباسي كان مثيرًا، وهم مراهقون هرموناتهم تتحكم في أفعالهم. حاولت أن أرد بأني كنت أرتدي ما ذهبت به معها إلى المسرح. لم تسمعني واستمرت قائلة إني كان يجب أن أكون أكثر حرصًا. شدّدت على أن ما أتوا به لم يكن ليحدث لو تفاديت أنا الموقف. أذهلتني وهي تقول إن الشاب لا يُلام إذا عرضت الأنثى نفسها عليه. كررت أكثر من مرة أنني كان واجبًا عليّ تحاشي ما حدث، وأن أكون أكثر كياسة. كان عليّ، كما أشارت أن أتفادى حدوث ما حدث من أساسه. تحجرت دموعي وأبت أن تنزل برغم هول ما كنت أسمع. مرة أخرى شعرت بأنني لست جزءًا من المشهد. وجدتني أحسن فرد ظهري، وأضم ساقيّ إلى جانب واحد وأرفع ذقني قليلًا في علياء. ثم علا من جديد صوتي وقد انطلق لساني، وكفن عاشت في لندن طوال عمرها قلت:

- اللي بتقوليه ده كلام مريض.

كأنها لم تسمعني. أمي التي تتباهى بزقي الغرب استمرت في محاولتها لوم الضحية. لم أتصور أن انحيازها لآدم سيجعلها تتدنى لهذا الحد. لمّا استمرت في لومي أصبح بي غليان. تفاجأت بي أصرخ في وجهها بحزم:

- الحاجة الوحيدة اللي هاعملها علشان خاطرك إني مش هابلغ البوليس!

أتذكر جيدًا الرعب الذي كسا وجهها. توقفت عن الكلام. عم السكوت قليلًا قبل أن أسمعني من جديد أقول:

- أنا راجعة مصر بكرة.. اعملي حسابك إنك هاتوصليني المطار.

أظن أن عينيها أصبحت بهما لمعة غير معتادة. لا أدري سبب تلك اللمعة: هل الحزم الذي أخذت به زمام الموقف؟ أم لكنتي التي لا شائبة بها؟ شعرت لأول مرة بأني نلت إعجابها، أو لعلها أعجبت بكيف أصبحت أنطق حروفي مثل مَن هجرتني لتعيش وسطهم.

23

مَن عاشر القوم أربعين يومًا ...

الآن وقد زادت جلساتي مع نعمت على الثمانين جلسة فلا بد وأن عدوى ما تعاني منه قد انتقلت إليّ. أضاحك نفسي بهذه الفكرة بعد أن بدأت أسمع أصواتًا في ذهني أنا الآخر. كلنا نسمع أصواتًا وننصت إليها أيضًا. ليس معنى ذلك أننا كلنا مرضى، ولكن الأصوات الداخلية لكلٍّ منّا جزء من التركيبة البشرية. لا أخفي أنني حين تزايدت الأصوات عليّ في الآونة الأخيرة اضطربت بعض الشيء. حينما نقترب من حالة ونتعرض لها على مدار زمني ممتد يحدث أحيانًا أن نشعر بعوارض ما يشكو المريض منه. تمامًا مثل «متلازمة طلاب الطب» أو كما يطلقون عليها أيضًا «متلازمة السنة الثانية» حين يغوص طلاب كليات الطب في دراسة الأمراض المختلفة فيبدأون من بعدها الإحساس بأن تلك الأمراض قد أصابتهم. تتسبب هذه الظاهرة في قدر كبير من الضغط على أغلبية الطلاب طبقًا للدراسات. أتذكر أثناء دراستي في شيكاغو أن قاموا بتجربة عن أحلام طلبة كلية الطب، فتحدث كثيرون منهم عن أحلام عانوا فيها من أمراض القلب والعينين والأمعاء. المعرفة بالمرض قد تخلق مخططًا عقليًا أو تمثيلًا للمرض والأعراض المرتبطة به. اللطيف أن العقل يتجاهل أي أعراض غير متسقة مع المرض الذي يختار المرء أن يشعر بأنه مصاب به.

أرفس فكرة أني أنا الآخر على حال مريضتي المفضلة نعمت سيد. لكني أستمع إلى الأصوات التي برأسي، فهي تقول كلامًا مهمًا وتحسن تحليل الحالة. يرن في ذهني تساؤل:

- ألا يُفضَّل لو أن أهلها شاركوا في بعض جلساتها؟

كم أود لو أنني أستطيع أن أدعو أمها وزوجها إلى بعض جلساتها. سيكون هذا مهمًا جدًا ودون شك سيساهم في تقدم حالتها. لكن نعمت ترفض ذلك المقترح تمامًا. لا ترفضه فقط، بل لا تسمح لي بمناقشته من الأساس. تسارع بإغلاق الباب بمجرد أن أقترحه. يؤرقني تهربها المستمر من إجابة سؤالي المتعلق بذات الموضوع:

- هل بلغتي حد من أهلك بتشخيصك؟

كلما سألتها تعاملت وكأني لم أنطق أو أنها لم تسمع. حين أكرر سؤالي ترد في اتجاه آخر أو على سؤال لم يُطرح من الأساس. لورا أيضًا منزعجة مثلي من هذا الموضوع. أرجو مع تقدم العلاج أن نستطيع إقناعها بإشراك القريبين بما تعاني منه.

طيف آخر يفرض نفسه عليّ وأنا أستعيد ما حكته لنا بخصوص تصالحها مع زوجها. كلما تذكرت تآمره عليها وإيداعه لها في المصحة، ألح عليّ مدى استحقاقه لهذه السيدة المميزة. أراها تستحق أفضل بكثير منه. أنيقة، ولا أقول جميلة حتى لا تثور لورا، وذكية ومثقفة وثرية، بها كل ما يتمناه رجل فيمَن تكون شريكته. أحتفظ بإعجابي بها لنفسي إذ لا يصح لمعالج أن يعلن إعجابه بمريضته. ولكن إعجابي ليس عاطفيًا ولا به غرض، إنما هو ناجم عمّا رأيته من ميزات في هذه السيدة، قليلة الحظ. يحذرني صوت في عقلي أن أحتفظ بهذا الرأي لنفسي وأن أخفيه عن لورا بالذات. يقهقه صوتي الناصح وهو يؤكد أن زوجتي لو علمت بما أكنه لنعمت لتحولت في لحظتها لنمرة جريحة.

بالفعل قللت مؤخرًا من إسهابي في إطراء نعمت أو التعاطف معها وأنا أحدث لورا. لاحظت تبرمها حين أزيد في ذلك. يصبح بردودها شيء من الحدة وهي تحاول أن تفند ما أقوله. أعلم أنها معتادة لهذه الطريقة في مناقشاتها. «محامي الشيطان» كما يقولون. تأخذ دائمًا الموقف المعاكس لما أقول من أجل إثراء الحوار. لكنني أيضًا قللت من مديحي لأن لورا أولًا وأخيرًا امرأة، امرأتي، والمرأة لا تحب أن يرى رجلها في أخرى أي مزية.

- تفتكر عصام قدّر اللي هي عملته علشان تصالحه؟

سؤال آخر لن أجد إجابة عنه طالما غير مسموح لنا بالتواصل مع زوجها. في تقديري أنه لن يقدر ذلك وأنه سيستغلها كما اعتاد. لسبب أو لآخر يشعر هو، وكل مَن حولها، بنوع من الاستحقاق. يتعاملون، ممّا تحكيه، وكأن وجودهم في حياتها تفضُّل منهم. الأسوأ من شعورهم ذلك هو تقبلها هي ورضوخها لاستغلالهم المستمر.

يجيء الدور على السيد سيد كي يأخذ هو الآخر دوره في تحليلاتي وتفكيري. أفتح ملف الحالة وأعود إلى ما دونته في إحدى جلسات البدايات:

«نعمت بها حالة اضطراب شديدة من قرار اتخذته بإلغاء التوكيل الخاص بأخيها سيد. كانت ترتجف وهي تتخيل رد فعله حين يعلم بذلك. ثم بدأت تحكي لنا عن كيف كان يتعدى عليها بالضرب وهما صغار، إنه لم يجد مَن يردعه عن هذا. سكتت قليلًا قبل أن أجدها ترتعد وتمد يدها تتحسس وجهها كمَن تلقت صفعة».

أحاول أن أجد في الملف أي إشارة لما حدث حين ألغت التوكيل فلا أجد أي شيء يشير إلى ذلك. ألجأ إلى ذاكرتي معولًا أن تكون نعمت حكت لنا شيئًا عمّا أقدم عليه سيد حين علم بإلغاء التوكيل، فأفشل في التذكر. دائمًا ما تفعل نعمت ذلك؛ تضطرب من

موضوع أو آخر وتعيد وتزيد فيه قبل أن تنحيه جانبا فتتناساه تماما ولا تعود إلى ذكره مرة أخرى. في أحوال كثيرة حين أحاول أن أفتح الموضوع تلجأ إلى المراوغة أو إعلانها نسيان الأمر برمته. الأكيد أن سيد لم يتهجم عليها حين عرف بموضوع التوكيل، وإلا كنت أنا ولورا قد عرفنا.

تعجبني في نعمت قدرتها على التسامح. قدرة تذهل لورا التي تراها «غير طبيعية». لورا تريد لنعمت أن تغضب وتثور. ترى أن مثل هذا الانفجار والتعبير عن الغضب سيكون خطوة مهمة على طريق استشفائها. ترى أنها متى ثارت سيكون تسامحها وتصالحها على أسس. ترى تسامحها الحالي كخمول مؤقت لبركان رابض بداخلها، حممه على وشك الفوران. تود لورا لو أننا استطعنا مساعدتها في التحكم في الغضب الذي لا بد وأنها تمتلئ به جراء ما تعرضت له.

- هو مفيش غير نعمت ولا إيه يا دكتور عمر؟!

صوت آخر بداخلي يجعلني سؤاله أستفيق. لدي مرضى آخرون بالفعل، لكني لا أستطيع التوقف عن التفكير في حالة نعمت. لا بد وأن أتخلص من تملكها لمعظم تفكيري. نعم، هي حالة نادرة ولذلك تستحوذ على كثير من وقتي، ولكن من غير الصحي أن تكون ملازمة لي بهذه الكثافة. بداية قللت كثيرًا من تحدثي عنها مع لورا التي علقت عدة مرات قائلة إنني لا أمل الحديث عن مريضتي المفضلة: نعمت سيد.

24

لم ننس آخر ما أشارت إليه نوني يوم حكت قصة عملية ختانها لمّا قالت: «في حاجة تانية بتوجع بطن نوني!» لكني اتفقت ورأي لورا بألا نضغط في محاولة معرفة ذلك. مهم جدًا أن نتعرف على ما يؤلمها مع قناعتنا أن ذلك قد يكون خطوة هامة، وربما أخيرة، على طريق اندماج هذه الشخصية وتكاملها مع نعمت. تفاجأنا اليوم بظهور نوني دون استدعاء منّا، وبدئها في الحكي دون سؤال. أصبح أخذها وضع الجنين والتصاقها بلورا علامة لظهورها. هذه المرة لم تحشر يديها بين فخذيها. على الفور شرعت لورا في تربيت ظهرها برفق، وبدأت هي في سرد حكايتها. سرد دون دموع ولا نهنهة.

بدأت بأن ما حدث كان اليوم التالي لعيد ميلادها الحادي عشر. ابتسمت وهي تحكي لها كيف أقاموا حفلًا كبيرًا بهذه المناسبة دعوا إليه كل زميلات فصلها بالمدرسة. ثم ما لبثت الابتسامة الطافية أن انسحبت حين أوشكت على الخوض فيما عزمت أن تحكيه لنا. برغم طفولية كلماتها إلا أنها أحسنت وصف ما كان يحيط بها. نقلت لنا الحزن والوجوم الذي خيم على المنزل ذلك اليوم. عمتها كانت تذرف الدمع حتى تورمت عيناها. وأبوها كان واجمًا، واستغربت الطفلة بكاءه كالأطفال. لم تدرِ لماذا بكت هي الأخرى، لكنها وجدت نفسها تجاري الكبار. التصقت بعمتها التي كانت تتحرك من ركنٍ إلى آخر في البيت. عندما التفتت إلى الصغيرة بعد حين، احتضنتها وأخبرتها بصوتٍ حزين:

- ستك راحت عند ربنا!

امتلأ البيت بسيدات كُثر يتشحن بالسواد. «هي» ظلت تكرر أن كل حاجة أصبح لونها أسود. الكل يبكي في صمت وإن علا نحيب واحدة أو أخرى بين حينٍ وآخر. ثم ظهرت سيدتان فتسيدتا المشهد. حين نظرت إلى عمتها متسائلة أخبرتها بأنهما مَن ستحممان جدتها حتى تقابل ربنا وهي نظيفة ورائحتها حلوة. رأتهما تدخلان حجرة جدتها وتبعتهما عمتها. على باب الحجرة توقفت العمة وطلبت من الطفلة انتظارها أمام الباب. لم تظل وقفتها، إذ سرعان ما اندفعت عمتها خارجة. سارت خلفها حتى وصلتا حيث جلس أبوها.

- عايزين حد من أهلها يحضر الغُسل.

رد الأب وعيناه دامعتان:

- ما انتي من أهلها.

ردت عمتها وهي تنظر للصغيرة:

- بيقولوا أحسن لو بنت من نسلها.

- خُدي نعيمة!

عمتها أمسكت بيدها وقادتها صوب حجرة الجدة. توقفت الطفلة عند الباب تقاوم الدخول دون أن تعرف سببًا لذلك. سحبتها العمة، وإن برفق، حتى دخلتا.

- ستها كانت باصة لفوق.. هي خافت من شكل عين ستها.. أوي.

نادت في سرها على جدتها فلم ترد عليها. اقتربت من السيدتين اللتين تحممانها وهما ترددان كلمات تعرفها من مشاهدتها عمتها وهي تصلي. راعها غري الجدة وكيف تقلبانها من ناحية إلى أخرى دونما حركة منها. اقتربت حيث وقفتا ومدت يدها فلامست كف جدتها محاولة إمساكها فتسللت إلى جسدها برودة لم تفهمها. دمعت بغزارة وهي تمسح بيدها عن أنفها الرائحة التي زكمتها ولفت الحجرة التي أدخلوها فيها. برغم أنها طفلة، تسرد ما لا تعي، وصفها جعلنا نشتم رائحة الموت.

- هي كانت خايفة أوي وستها كانت إيدها ساقعة أوي أوي.. والريحة كانت وحشة خالص.

مرة أخرى وجدت لورا تبكي وهي مذهولة. محاولة تصور المشهد الذي تعرضت له الطفلة الصغيرة، أصابنا نحن الكبار بالذعر. ضمتها زوجتي وسط دموعها وأخذت تطبطب عليها محاولة تهدئتها. أحاط بجلستنا صمت به توتر. لم أجد ما أقوله كي أخفف الحزن الذي شملنا. استمرت لورا في احتضانها وهدهدتها برقة. بعد قليل بدأت في تغيير وضعها. أطالت من بعد ذلك النظر إلى عيني زوجتي. وصفت لورا لي، فيما بعد، أنها كانت نظرة وصفها الوحيد أنها مرتاحة. أخبرتني بعد الجلسة أنها أحست بأنها تودعها. بعد نظرة طالت وجدناها تفرد جسدها متخلصة من وضع الجنين لتجلس مقرفصة على الأريكة، وعلى وجهها ابتسامة واسعة.

***

- يا قلبي يا كتاكت.. يا ما فيك وانت ساكت!

أنا، كنعيمة، قهقهت وأنا أرى «الخضّة» تعتلي وجه الدكتور عمر حين سمع ما بدأت به حديثي. كنت أعرف أن دوري قادم، وأن الدكتور ولورا لا بد وأنهما استدعياني كي أحكي لهما ما أحسن إخفاءه في طيات ذكرياتي. شجعني ما شاركتنا به ناعومي وما باحت به نوني؛

لذلك قررت أن أبادر أنا وأبدأ في سرد ما ظننته يعينهما في خطة العلاج.

سردت عليهما من قبل كيف اعتاد سيد صفعي بمناسبة وبدون مناسبة. الآن وبعد أن كبرت فهمت أنه كان يستعرض ذكوريته. لم يجد رادعًا، بل شجعه أبي وكل مَن حولي بسكوتهم. ما زالت أصوات لطمه لوجهي تدوي في أعماقي. أحيانًا كثيرة، حتى اليوم، أقوم مفزوعة من نومي على دوي نزول كفه على وجهي ونحن صغار. أبي، في ظني، وجد في ذلك رجولة مبكرة من ابنه الصغير. لا أشك في حب أبي لي، ولكنه، كمثل رجال كُثر في مجتمعنا، لا يؤمنون بتساوي الابن والابنة. جدتي كانت تحزن حين أشكو لها باكية، لكنها بعد كثير من الطبطبة تنتهي بتصبيري بكلمات لا طائل منها. تطلب مني أن أتحمل، مؤكدة أن ما يأتيه شقيقي مهما كان قاسيًا فوازعه الحب. طالما أنهت حديثها معي حين أستغيث بها قائلة:

- الخشب اللين ما ينكسرش يا نعيمة.

لكن اللين والقبول من جانبي لم ينتج عنه سوى تزيد وتجبر من الطرف الآخر. قللت من شكواي لأبي وجدتي إذ وجدتهما لا يباليان، وفي أحيانٍ وجدت بهما رضًا بما يأتيه سيد. عمتي هي مَن استمرت في الوقوف بوجهه وردعه وتذنيبه حين يزداد افتراؤه. برغم محاولاتها المستمرة في جعله يلين، إلا أنها لم تنجح. أتذكر جيدًا ضحكتها الطيبة وهي تصبرني فتقول لي:

- أخوكي ده عامل زي القنفد، لا ينحضن ولا ينباس.

ثم جاء ذلك اليوم الذي فاض بها فوشوشتني:

- اسمعي يا نعيمة: من هنا ورايح مع الواد سيد الزقل بالطوب ولا الهروب.. إوعي تسكتي له لما يمد إيده عليكي.

استمعت لنصيحة عمتي فأصبحت أصرخ في وجهه وأحاول صده حين يبدأ في صفعي. نوع من المقاومة السلبية على طراز غاندي. لكن تعديه لم ينفع معه ذلك الأسلوب المستكين. صراخي ومحاولات إبعاده زادته همجية. لم أجد طريقة من بعد ذلك سوى تحاشيه نهائيًا. تفاديت خطوط سيره حتى أصبحت لا أخرج من غرفتي طالما كان موجودًا بالبيت. أمر صعب لمَن في سننا ويقضون وقتهم ما بين البيت والمدرسة فيما عدا أيام العطلات. أصبحت أتنفس براحة حين يخرج من البيت، وأدعو في سري أن يطول غيابه.

ثم جاء اليوم الشهير. لا أتذكر سببًا لبدء المشاحنة بيني وبين سيد ذلك الصباح ونحن في انتظار أتوبيس المدرسة أمام المنزل. ولكن كما يقولون تعددت الأسباب والموت واحد. رفع يده ليصفعني فوجدت صوتًا أجش لا أدري من أين ولا كيف صدر من أعماقي. صوت عجيب

لكنه مملوء بقوةٍ وبأس. صوت صاح في وجهه:

- كفاية!

لا أنسى نظرة الذهول التي أصابته. ليس ذهولًا فقط، بل رعبًا أيضًا. توقفت يده في الهواء. صحت به:

- إوعى تمد إيدك!

لم أكتفِ بذلك، إذ وجدتني أرفع يدي وبكل ما أوتيت من قوة أنزل على وجهه بصفعة مدوية. صفعة محت كل الصفعات التي وجهها لي طوال حياته، صفعة جعلته يترنح قبل أن يسقط على الأرض. شفي كل الغليل الذي بي وأنا أراه مكسوزا باكيًا ينظر لي في توسل. لم تأخذني به رحمة فقفزت فوقه واستمررت في الصفع واللكم. وأنا أضربه، استمر ذلك الصوت الأجش في الصراخ فيه متوعدًا أن هذه آخر مرة يمد يده عليّ. عند عودتنا إلى البيت توقعت أن يشتكيني وأن يتسبب لي في عقاب شديد. فاجأني سكوته وخنوعه وكأن شيئًا لم يحدث. ومن يومها توقف الصفع والضرب والتعدي. مرت أسابيع قبل أن أحكي أنا لعمتي. يومها حضنتني وابتسمت ابتسامة واسعة وقالت لي:

- اللي تحطي رجلك مطرح رجله ما تخافيش منه.

***

وضح لنا من هذه الجلسة أن من أعماق نعيمة خرجت شخصية عكس شخصيتها تمامًا. شخصية تواجه وتأخذ حقها بيدها. شخصية تختبئ خلف صوت أجش تطل بين الحين والآخر. هذه الشخصية لم تكتمل لتطفو وتكون إحدى الشخصيات الرئيسية للحالة. في تقديري أنها ليست مجرد رد فعل لاعتداءات سيد المتكررة، لكن كونها ذكرًا هي رد فعل لانحياز الأب للولد على حساب البنت. من الواضح أيضًا أن هذه الشخصية ظهورها لحظي في صورة تحدٍ أو تشجيعٍ لنعمت على فعل ما لا تستطيع إتيانه. اختيار نعيمة للحكي عنها دونما طلب مِنّا يضعها على طريق الاندماج دون مجهود كبير. سعيد جدًا بما نحققه من تقدم في جلساتنا.

25

تشير دراسات علم النفس الحديثة إلى أن العقل البشري لا يستطيع أن يفرق بين الحقيقة والخيال. ربما هذا ما يسهل علينا كبشر تقنين وتقبل ما نقدم على ارتكابه من أخطاء في حق الغير ونحن واعون. نستمر في إقناع أنفسنا بأن ما نفعله ليس خطأ حتى تصدق عقولنا أننا على حق وأننا غير مذنبين. نستطيع بالوقت تحليل ما نعرف أنه بالتأكيد خطأ ومرفوض إن أردنا ذلك. على الأقل نحلله لأنفسنا وإن لم يقتنع الآخرون بما ذهبنا إليه.

عندما فاتح سيد زوج أخته عصام، في موضوع معاونته في الاستحواذ على ملكية نعمت في الشركة، كان رد فعله بدايةً، حين تفكر في الأمر، هو الرفض. لم يستطع استساغة الفكرة وشعر بأنه لو أقدم على ذلك فستكون خيانة كبرى. طاردته الفكرة رغم محاولات مضنية منه لإهمالها وطردها من رأسه. في الوقت نفسه كان موضوع خروجه من الشركة يؤرقه. لم ينل الأرق منه وحده، لكنه أصاب زوجته الثانية، أم ابنه، بقلقٍ شديد. لم يغد لها شاغل سوى استمرار طلبها منه أن يؤمّن لابنهما مستقبله، وأن يحارب من أجل ما أسمته «حق الولد».

فكر من جديد في طلب سيد. بدأ في إقناع نفسه بأن الموضوع ليس بالجسامة التي قد يتصورها البعض. في النهاية ستحصل نعمت على مئات الملايين من الجنيهات. نعم ستحصل على أقل من حقها لكن ما ستفوز به كافٍ ويزيد على احتياجاتها واحتياجات أجيال من بعدها. أجيال غير موجودة بسبب عقمها. ربما يكون ما لا تقبضه تعويض عن عدم اكتمال أنوثتها. ثم إن ما سيقبضه هو جراء الصفقة أقل بكثير ممّا يستحق. يرى ما سيدفعه سيد أقل كثيرًا ممّا يجب، ولكنه كافٍ لإراحة هواجسه حول مستقبل ابنه. ثم إنه طوال عمره لم يخُن نعمت ولم يفكر يومًا في ذلك. زيجته الثانية ليست خيانة بالتأكيد. زيجة سدٍّ لحاجةٍ واستكمالٍ لنقصان. لو لاموه لأنه لم يصارحها ويخبرها فسبب ذلك في الأول والأخير أنه لم يُرد جرحها. اختار أن يخفي الأمر عنها حتى لا يكون سببًا في حزنها. يثق أنها في الأغلب كانت لتتفهم. يؤمن أن ما لا تعرفه لا يحزنك ولا يؤلمك كما يقولون.

الأهم بالنسبة له أنه لم يقصر يومًا في حبها. يتصور كثيرون أنه تزوجها من أجل أموال أبيها، لكنه بالإضافة إلى ذلك أعجب بها. تذكر وقت بدأت عملها في الشركة وكيف لفت نظره جمالها الهادئ. شجعه، بالطبع، أن ارتباطه بها سيوثق صلته بالثروة التي يرى نفسه سببها الأول إن لم يكن الوحيد. لكنه أقنع نفسه بأن إعجابه بها الدافع الأساسي لأن يتقدم لها. ثم إن ترحيب الأب به وقبولها هي الأخرى واعترافها، فيما بعد، بأنها أيضًا أعجبت به وأحبته بعد أن تعرفت عليه، أزال من نفسه أي شبهة اقتصار دوافعه على الماديات.

عاودته الشكوك من جديد، وبقوة، يوم أعطته التوكيل. شعر بثقل أن تثق به لهذه الدرجة فيأتي هو بفعل فيه شبهة. ظلت كلماتها تصدح في دماغه:

- اعمل اللي تشوفه.. من غير ما تسألني.

أرهقته ثقتها وحمّلته الهم. لكن قلقه لم يطل إذ وجد في ثقتها علامة. يثق في العلامات طوال عمره. لو أن ما هو مقدم عليه خطأ لما تيسر لهذه الدرجة. عاد يؤكد لنفسه أنه سيفعل ما فيه صالح الجميع. نعمت وابنه وزوجته الثانية. مهم أن يحميها من سيد وألاعيبه ويبعدها عن شره. سيترك له الجمل بما حمل بعد أن يقبض منه، لها ومن بعدها له، ثمنًا باهظًا ومحترمًا. كلما تدبر الأمر تلاشت شكوكه كلها وارتاح ضميره وترسخت قناعته بأن ما هو مقدم عليه هو الأفضل.

مع وجود التوكيل بيده لم يسارع في طلب مقابلة سيد لينهي الصفقة. قرر أن هناك زيارة أخرى عليه القيام بها قبل ذلك. اتصل بأم نعمت وطلب منها موعدًا.

- نعمت عملت لي توكيل.

تفاجأت الأم بأن ابنتها لم تستمع لنصيحتها بعدم الثقة في أي أحد سواها. استغربت إقدامها على ذلك برغم ما عرفته من محاولة زوجها إثبات عدم أهليتها. قللت من برود استقبالها له بعد أن أدركت أنه أصبح بيده مفاتيح اللعبة. تصورت أنه جاء يخبرها بأنها لم يعد لها دور في خطته. تحفزت ونوت أن تهدده بأنها ستقلب الأمور على رأسه إن حاول إقصاءها.

- عرضي ما زال قائمًا.

فاجأها مرة أخرى. زاد دفء استقبالها عدة درجات.

- والمطلوب مني؟

- إنك تقنعي نعمت بعد ما يتم البيع إن ده الأفضل.. مش عايزها تكون متضايقة.

- ما هو فعلًا أحسن لها.. على الأقل تتفادى سيد وتبعد عنه.

في قرارة نفسها استمرأت المبلغ الذي تصيبه. استحسنت أنها ستؤمّن لآدم ما يكفل له عيشة كريمة. يستحق أحسن ممّا هو فيه، لا شك لديها في ذلك. مقتنعة أيضًا بأنه لا ضرر سيقع على ابنتها، بل على العكس، ستصيب ما يفيض عن حاجتها ويزيد.

عصام ارتاح لوجود الأم في المعادلة. رضاها بما هو على وشك فعله شرعه. الثمن الذي

ستقبضه قليل في مقابل إقناعها لابنتها بجدوى الصفقة. الأهم أنه سيحوز ورقة يستطيع لعبها إن لامته نعمت يومًا. سيقول حينئذٍ إنه استشار أقرب الناس إليها ووافقته. طوال عمره يعرف كيف يستغل طمع مَن يفاوضه. إذا توصل إلى نقطة ضعف مَن أمامه وقرن ذلك بطمعه وصل دائمًا إلى مآربه. طالما عرف تفضيلها لكل ما يخص آدم، واليوم أوصلته تلك المعرفة إلى ما أراد.

سيد هو الآخر استقبله ببرودٍ شديدٍ في البداية. برود لم يطل حين أخبره بأن معه توكيل يستطيع بموجبه إنهاء الصفقة التي يرغبها.

- معقولة!

خرجت منه الكلمة بعفوية، فكان ردها ابتسامة واثق من عصام وهو يعرض عليه صورة المستند الذي بحوزته.

- أنا جاهز.

لكن عصام لم يكن جاهزًا. عصام بدأ يتفاوض من جديد. لم يستأ سيد لمَّا وجده يرفع نصيبه أو أتعابه فقط دون تغيير لما ستجنيه نعمت. لم يطل نقاشهما إذ سرعان ما اتفقا على ثمنٍ مُرضٍ لكليهما. أكثر ما رحب به سيد كان ما طلبه عصام لأم نعمت. لم يصدق للحظة أنها ستقبض هي الأخرى. السيدة الأنيقة، التي طالما تعالت عليه وأشعرته بأنها من طينةٍ أخرى، لها ثمن. أعجبته فكرة أن يكون هو المشتري لها. سنوات طوال عانى، وأمه، من أحاسيس الدنو التي استمرت في تصديرها لهما. اشترط على عصام شرطًا واحدًا: أن يقوم هو بالدفع لها مباشرة. لم يُرد وسيطًا بينه وبينها. سيذهب لها بنفسه ويسلمها الشيك. يريد أن يستمتع بكسرة عينيها وهي تقبض منه.

الأهم عند سيد أيضًا كان قناعته بأن الصفقة التي أبرمها في مصلحة الجميع وأولهم أخته. ستستطيع أن ترتاح وتعيش حياتها ومعها ثروة ضخمة. أما ما وفره من الثمن الحقيقي فلا يمثل فارقًا لأنها لن تحتاجه عمليًا. ثم إنه يفض اشتباكًا مستقبليًا لا داعي له، اشتباكًا شائكًا بعد عمرٍ طويلٍ يجد أبناءه فيه شركاء لابن عصام من زوجته الأخرى. طمأن نفسه أنه في الأول والآخر راعي مصالح نعمت. برغم ما يظنه مَن حولهم هو يحبها، وبرغم شكواها من طريقته معها، ها هو الآن يدفع ثمن راحتها، أو هكذا تصور.

الزوج والأم والأخ يحبونها، كم هي محظوظة بمَن حولها. يحبونها ويقدمون ما في مصلحتها، ويرجون أن تُقدر نعمت ذلك.

السيد نيتشه، الفيلسوف الألماني، تلح عليّ مؤخرًا أفكاره الخاصة بالانتقام. ربما لأنه الفيلسوف الذي اضطررت للقراءة عنه عندما كنت أحضّر بحثًا عن فلسفة الانتقام أيام الجامعة. مادة الفلسفة كانت من المواد الاختيارية التي أحتاج إلى دراستها من أجل إتمام بكالوريوس علم النفس. أحاول أن أتذكر لماذا اخترت هذا الموضوع الغريب فلا أستطيع. المهم أن أستاذي وقتها أعجبه البحث وأعطاني الدرجة الأعلى. أتذكر جيدًا القول الذي نقلته عن نيتشه: «من المستحيل أن نعاني دونما أن يدفع أحد الثمن، فكل شكوى تحمل في طياتها انتقامًا».

كالعادة، والمتوقع، تشابكت الأصوات في رأسي كلما طفا الموضوع على السطح. ناعومي تعلننا:

- لازم نوجعه زي ما وجعنا.

فترد نعيمة:

- سيد طبعًا؟

- لأ، عصام.

- وسيد.. سيد الأول.

في طيبة تحاول نعيمة أن تدافع عن عصام، فترمي بأحد أمثالها التي لا ينضب معينها منها:

- الشجرة اللي تضلل بيتك ما تدعيش عليها بالقطع.

تُفاجأ بناعومي ترد بما لم نتوقعه ولا نعتده منها:

- الشجرة اللي ما تضلل أهلها يحل قطعها!

«عندما يصبح لدينا حافز للانتقام، يكون باعثه في الأساس رغبة في العدالة. عندما يقع ظلم على أحد فالطريقة المثلى لإعادة التوازن الأخلاقي هو أن يدفع المخطئون ثمن أفعالهم. لن تسود العدالة إذا لم يُعانِ مَن أوقعوا الظلم».

بهذه الكلمات ختمت بحثي الجامعي، واليوم أجد أن كل كلمة كتبتها آنذاك مقنعة وحقيقية وليست مجرد ملء لسطور. أتعجب أحيانًا من قوة ذاكرتي. ذاكرة انتقائية لا يمكن التنبؤ بما تقرر أن يطفو على سطحها. وهي ذاتها التي تحجب عني كثيرًا من التفاصيل في كثير من

الأحيان.

ناعومي ظلت تعيد وتزيد في وجوبية الانتقام. توافقنا على أن بنا غصة ومرارة شديدة من كل مَن حولنا. تطرقنا إلى سبل متعددة للانتقام. انزعجت حين شطّت بنا الأفكار حتى وصلت إلى القتل. لكن هذا الانزعاج لم يوقفني عن تخيّل كيفية إتيان هذا الفعل. أعلم للقتل طرقًا كثيرة من الصعب أن تُكتشف. ناعومي، في إحدى مناقشاتنا، اقترحت أن نستخدم السم. قالت إنها وجدت على أحد المواقع أن هناك سمومًا سهل اقتناؤها من مواد موجودة بالأسواق دون إثارة الشبهات. فاجأتنا بأن البوتكس الذي تتكالب النساء على حقن وجوههن به من تلك المواد. تذكرت أن ممرض طبيب تجميلي عرض عليّ شراء ما أحتاجه من أحد معارفه. اقتراحه يوفر من مكسب الطبيب، إذ سيحاسبني فقط على أجرة الحقن. حين يُخلط البوتكس بما يأكله الإنسان، تظهر عليه بعد أيام أعراض أقرب لأعراض الأزمات القلبية في كثيرٍ من الأحيان. لا يكشف الطب الشرعي مثل هذه الحالات من التسمم، إلا إذا كانت هناك شبهة جنائية من الأساس.

استمرت في استعراض معلوماتها:

- قريت برضه إن بذر التفاح والكريز فيهم سم.. سيانيد على ما أظن.. بذر عشرين تفاحة لو اتعصروا يخلصوا على البني آدم.

ثم أضافت ضاحكة:

- ولا من شاف ولا من دري.. أعراض أزمة قلبية.. من هنا ورايح ناكل تفاح وكريز ونحوش البذر.

استمرت مناقشاتنا الغريبة. اندهشت من أن فكرة أن أكون قاتلة لم تسبب لي انزعاجًا. لا أدري إن كان عقلي يداعبني وهو يعلم أني بالتأكيد لن أقدم على ذلك، أم إن غضبي مما أصابني جعل الفكرة مستساغة. أخذنا الموضوع إلى بُعد جديد ونحن نتخيل ما بعد التنفيذ. تصورنا أن مكالمتنا الأولى بعد وفاة عصام ستكون لها. نعم أول مَن سنكلمه هي ضرتنا. بهدوءٍ سنخبرها بأن البقية في حياتها، وأن زوجنا ذهب إلى خالقه. ستحتار المسكينة من هول المفاجأة. مفاجأة مكالمتنا ومفاجأة وفاته. أشعر بأن الشر بداخلي يتمكن مني وأنا أبتسم وأنا أستطعم الانتصار الذي أحرزه وأنا أخبرها. ستعلم أني علمت بخيانته لي معها، وأني سكت عن فضحهما باختياري. لن أقيم له عزاءً وسأكتفي بنشر نعي أن العزاء اقتصر على تشييع الجنازة بناءً على رغبة المرحوم. تزعجني الابتسامة الطافية على وجهي وأنا استمرئ أفكاري الشريرة.

- مش لدرجة القتل يعني!

هكذا قاطعتنا نعيمة منزعجة بعد أن طال الحديث بيني وبين ناعومي. مقاطعة جاءت في وقتها. أعترف بأن ما استوقفني ليس بشاعة فكرة القتل، ولا أن يكون الجزاء بحجم الجرم. ما استرعاني كان ما قرأته، لنبتشه أيضًا، فيما يخص فلسفة الانتقام. برغم أن نظريته تبدو قاسية، إلا أنها كانت مقنعة بالنسبة لي: «يجب على المنتقم، إن سنحت الفرصة، أن يجعل غريمه يشعر بقوة وشدة انتصاره عليه؛ إذ إن من الطبائع البشرية الاحتفاء بالتفوق والنصر». الانتقام هنا ليس بكم الشر الذي يحويه، ولكن بالرضا الذي يحصل عليه المرء من انتصاره، ودون نظر لمكاسب مادية. هذا ما جعلني أركز أفكاري في طرق تجعلني أرى مَن أنتقم منهم يعانون، وربما أستمتع بمعرفتهم أنني مَن تسببت بالنقمة التي حلّت بهم. يغلبني ضعف وأنا أحاول أن أجد لهم مسببات لما اقترفوه بحقي. أو ربما فكروا أن يقترفوه ولم يفعلوا بعد. لم أقصر يومًا في حب أيهم. طالما قدمتهم على نفسي. حاولت دائمًا أن أكون لكلٍّ منهم ما يتمناه، حتى لو كان هذا على حساب نفسي.

ظلت تراودني فكرة أن بذور عشرين تفاحة بعد عصرها تُنتج سمًا كفيلًا بقتل بني آدم. لا يستطيع أحد أن يُثبت من أين أتى السم في هذه الحالة. أعجبت بهذه الفكرة من قرط بساطتها. سأجمع البذور في زجاجة صغيرة أخبئها في درج مجوهراتي. تعود نعيمة صارخة:

- كفاية جنان!

استمرت أصوات دماغي يحتدم نقاشها حول مَن يستحق الانتقام. نعيمة تريده لسيد وناعومي لعصام. حدث صمت لحظي لمّا طرحت أمي كمرشحة هي الأخرى. ثم اتفقنا أنه ربما يكون أجدى أن نوجّه ضربتنا نحو مَن تفضله، آدم.

موضوع الانتقام وأبعاده جعلني أقرأ كثيرًا عن حالتي. أثار انتباهي التعامل القانوني مع مَن يرتكبون جرائم وهم مُشخَّصون باضطراب الهوية التفارقي. في آخر جلساتي مع الدكتور، بعد أن زحزحت جلستي إلى طرف المقعد، ونظرت حولي بترفع، معلنة عن وصول ناعومي، بادرت متسائلة:

- لو أن كل شخصية من شخصياتي كما تقولان مكتملة أو أقرب إلى الاكتمال، فالمنطق أن كل شخصية مسئولة عن أفعالها، مظبوط؟

كعادتها وجهت حديثها إلى زوجته. تُفضّل الحديث إلى الأمريكية. تشعر بأنهما من فصيلٍ أفضل من بقيتنا حين تفعل ذلك. يبدو أن لورا شعرت بكمينٍ يُنصب لها فاكتفت بهز رأسها، فاسترسلت:

- لكنّ بيننا جسد مشترك. كل شخصية تقود هذا الجسد لفترةٍ أو أخرى. القوانين وعقوباتها عادة تتعامل مع الأجساد، بداية من الإعدام، ونزولًا إلى الحبس، ووصولًا إلى الغرامات؛ إذ إن دفعها يحتاج إلى مجهود جسدي من نوعٍ أو آخر. سؤالي لكِ يا لورا: لو أن شخصية من شخصياتي ارتكبت جريمة، ففمن المفروض أن يُعاقب، بالذات أن الجسد في حالتنا ملكية مشتركة لشخصياتنا؟

ظهر الوجوم على الدكتور عمر وهو يسمع تساؤل ناعومي، في حين وضح أن لورا تأخذ وقتها في التفكير قبل الرد.

- في الحقيقة أن في أمريكا طالب عدة محامين ببراءة موكليهم بحكم مرضهم بمرض تعدد الشخصيات كما كانوا يسمونه، واستندوا إلى أن المرض وتحكم شخصية معينة في وقتٍ معينٍ يشل قدرات الشخصيات الأخرى عن وقفه عن إتيان جرمه. تمامًا كما حدث لكِ في بعض الأحيان. في أغلب الحالات، إن لم يكن في جميعها، رُفضت هذه الدفوع. الفارق الوحيد كان في الأحكام التي صدرت. بعض الأحكام تجاهلت المرض وحكمت على المتهم بالسجن أو بالعقوبات المقررة لجريمته، ولكن في حالات قليلة جدًا أمِرَ بإيداع المجرمين مصحات نفسية. مؤخرًا أصبحت المحاكم ترفض قبول الإصابة بهذا المرض كسبب للتخفيف أو الرأفة.

في هذا اليوم شعرت بضيقٍ كبيرٍ بادٍ على لورا. لم تستطع أن تخفي توترها وتوجسها من المناقشة وكأنها شكّت في أن السؤال لم يكن افتراضيًا أو من باب المناقشة فقط.

الغصة التي بي صارت تسيطر عليّ معظم الوقت. لا أستحق تآمرهم عليّ. أكره ما أصبحت متأكدة منه من تواطؤ سيد وعصام. يصارع ما بي من غصة ما تبقى من عاطفتي تجاه كليهما. نعم، ما زلت أحب عصام برغم كل شيء. وسيد في النهاية أخي واجب عليّ أن أحبه مهما حدث. أطيل التفكر في موضوع وجوبية الحب هذا. هل نحب مَن يشيرون بحتمية حبهم مهما فعلوا. مقبول أن نغضب منهم وأن نستاء من أفعالهم، لكن هل مسموح أن نكرههم؟

تتولد لديّ أفكار مختلفة عن سبل الانتقام التي أستطيع طرقها. حدثت نفسي بأن العقاب لا بد وأن يكون من جنس الجرم. إذا كانوا طامعين في أموالي، فحرمانهم منها أسهل الطرق. أعضاء المؤتمر الدائم الانعقاد في رأسي عارضوا ذلك. ضحكت نعيمة قائلة:

- كأنك يا بوزيد ما غزيت.

تختلط الأفكار في ذهني ما بين الواقع والخيال. تطرأ في ذهني خطط لا أدري إن كنت

نفذتها، أو بدأت في تنفيذها، أم هي مجرد أوهام. أتخيل أني أقدمت عليها وأبتسم وأنا أتصور معاناتهم ممّا سيصيبهم. ثم تعود مشاعري للتأرجح فأستكين ويعلو صوت نعيمة بجملتها المفضلة: «الطيب أحسن». ثم تعود نعيمة فتناقض نفسها وضحكتها مجلجلة:

- ما هما لازم برضه يدوقوا.. واللي نفسه في العسل يستحمل قرص النحل، واللا إيه؟

إحدى الأفكار كانت بسيطة في عبقريتها: ماذا لو أن التوكيل الذي أعطيته لعصام مزور؟ سيبيع أسهمي لسيد كما ألحّ عليّ مرارًا وتكرارًا في الفترة الماضية. أعرف الآن أن خطته للحجر عليّ كانت من أجل تنفيذ هذه البيعة. أعلم، وهو أيضًا، أن السعر الذي يشجعني على قبوله غير عادل. تقييم الشركة وأسهمها من صميم خبراتي وتخصصي. لا يخفى عليّ أنه وسيد بينهما اتفاق ما. الفكرة التي ومضت في ذهني رائعة. ماذا لو أن توكيله مزور؟ طعني حينئذٍ في بيع أنصبتي يحيله للنيابة، وغالبًا سيأخذ حكمًا بالسجن. تحمست ناعومي للفكرة، وأضافت لتفاصيلها: يمكننا استبدال توكيل مزور بالتوكيل الحقيقي. استوقفتها نعيمة متسائلة:

- وها نجيب المزور منين؟

- في بلدك الحصول على المزور أسهل من استخراج الأصلي.. ها تلاقي ميت سكة.

المضحك فعلًا أن الحصول على المزور سيكون من نفس مكان استصدار الحقيقي. نفس الموظفين يستخرجون المطلوب حسب الحالة. لا أعمم، ولكن هذا هو الحال. من أجل تمام الحبكة وحسن التزوير واكتمال الأختام سأجد مَن يساعدني ممَّن تتسع جيوبهم وأدراجهم لرشوة مناسبة أعرضها عليهم. ربما يستغربون رغبتي في تزوير توكيل باسمي، لكن أي استغراب سيمحوه المبلغ الذي سأعرضه عليهم.

- طيب والتوكيل الأصلي اللي اديتيهوله.

- بسيطة أوي، هانبدله مع المزور.. عارفة هو شايله فين!

أتصور من جديد بكاء ضرتي في قاعة المحكمة وهي تسمع الحكم على عصام. سأنظر إليها باستعلاء وأنا أغادر المكان. ربما أتصل بها فيما بعد لأتشفى، لا أدري.

سكتت نعيمة ثم سألت سؤالها المعتاد:

- طيب وسيد.

سيد أيضًا كان أمره سهلًا. ربما أسهل من عصام. بعد أن يحصل على الأسهم وأكون أنا قد تخارجت من الشركة فلديّ من الملفات والمستندات ما يضمن تشريفه في الليمان أمدًا

طويلًا. تذكرت صديقه الأقرب الذي وقع في مشكلة مع البنوك ومن بعدها الضرائب واضطر في النهاية للهروب من مصر. تخيلت سيد يقلده فيركب ظهر جمل يعبر به الصحراء إلى ليبيا ومنها إلى أوربا ليعيش حياة المطاريد. هروب سيد إلى أوربا عقوبة أشد عليه من السجن. بُعده عن الجاه والسلطة، أو التسلط، سيصيبه بالجنون. وإن هرب سيضطر أن يستجديني من أجل أن أمده بالمال كي يعيش عيشة الهاربين. سيضطر إلى ذلك لأن أبي طالما رفض فتح حسابات لنا في الخارج. فضّل دائمًا أن تكون أمواله تحت رجله كما كان يقول. حوّلت أنا كثيرًا من أموالي من وراء ظهره. حساباتي هناك من أنجح ما فعلت.

للأمانة كنت سعيدة وأنا أتصورهم في المواقف التي سيطرت على خواطري. في وسط انتشائي، يحل عليّ آدم فأعاود التفكير فيما يناسبه. أحتار إن كان يذكر فعلته وأصدقاءه معي في أول زياراتي للندن. هل أنّبه ضميره؟ وهل كان ما أقدم عليه مجرد طيش مراهق أم إنه من ذلك النوع من الرجال الذين لا يرون المرأة سوى مطية؟ عيب جلسات عمر ولورا أنها أيقظت ما كان عقلي قد أحسن دفنه. أحتار في جزاءٍ مناسب لابن أمي، ثم أخلد لفكرة أنها هي مَن يستحق العقاب لا هو. سيكون عقابهما مشتركًا وبساطته أنه كله بيدي. سأقطع عنها كل مساعداتي المالية، لنرى كيف ستعيش عيشة الأرستقراطية التي تعشقها ولا تقدر على مصاريفها. وسأدعها محسورة على ابنها البريطاني الذي يعيش عيشة الفقراء ولا قدرة لها على إعانته.

يقطع تفكيري سبب أو آخر. ربما نوم أو خروج، وحين أبدأ في التفكير من جديد تغلبني أحاسيس ندم. كيف أنتقم من كل مَن حولي ولمَ؟ وهل أنا أنتقم من آخر ما أقدموا عليه، أم من مجملها عبر حياتي؟ ماذا عمّن غادروا عالمنا ولو كانت أذيتهم عن عدم دراية؟ نعم كلهم آذوني، ولكنهم في النهاية أهلي. لن أقول عزوتي؛ لأنهم أثبتوا أنهم أبعد ما يكونون عن ذلك. لكن على رأي نعيمة:

- الدم عمره ما يبقى مية.

27

- الشك هو وقود تقدم العلم.

هكذا صاحت لورا بعمر وهي تجادله بخصوص حالة نعمت سيد. رد عليها بحزم:

- أنتِ مَن رفضتِ تشككي حينما شخصتها في بادئ الأمر.. تتذكرين حين قلتِ لي وقتها: لماذا تريدها أن ترفض تشخيصك؟ هل بك شك؟ أحيانًا نريد ممَّن أمامنا أن يؤكد شكوكنا.. قلتِ هذا عندما حيرني تقبلها لتشخيصي دون محاولة رفض أو إبداء أدنى معارضة.

- لا أنكر هذا، ولكن الآن بي كثير من الهواجس بخصوصها.

- ليس بي أي شك في تشخيصي الآن، وبعد كل هذا الوقت وهذا العدد الكبير من جلساتنا معها.

صمت قليلًا قبل أن يستطرد:

- هذه الحالة يتمنى أمثالي أن يقابلها مرة في تاريخهم المهني.

- ومن أجل ذلك نتجاهل شواهد لا يمكن إغفالها؟ يا عمر يا حبيبي لا تجعل حماسك للحالة يتغلب على مهنيتك.

- أنا متأكد من مرضها.. لديها كل العوارض.. لديها كل المسببات كما يقول الكتاب.

- وأنا لا أجزم بأنها مدعية. فقط أريد أن أجعل احتمال ادعائها قائمًا. لا أريد أن ألغيه تمامًا من فكرنا.

سكتت قبل أن تضيف:

- مثالية الحالة زائدة على الحد.. مثالية تقلق!

تستمر لورا في مناقشته ويستمر هو فيرفض، أو بالأحرى يرفس كل محاولاتها. ليس لديه أدنى شك في تشخيصه، وليس مستعدًا لسماع هاجس لديها أنها قد تكون مدعية لمرضها. لورا غدت قلقة من بعض الشواهد التي زادت قلقها مؤخرًا. عمر، كما يبدو لها، به حماس أن وقعت في يده حالة لمرض نادر. أغلب الأطباء النفسيين يقضون عمرهم دون أن يقابلوا حالة تعدد شخصيات.

- حماسك للحالة يعميك ويغطي على موضوعيتك.

- يعميني؟ ثقتي في تشخيصي تعميني؟ أنتِ مَن لم تعُد بها قدرة على التمييز.. تريدين

عرقلة التقدم الذي حققناه.

لم تسكت زوجته ولا استكانت. تذكره بأن كل ما أصبح يتحدث عنه مؤخرًا هو البحث الذي سيعده عن الحالة وعلاجها، وكيف سيدفع به هذا البحث إلى مقدمة الأطباء النفسيين.

- مللت من تكرارك أن هذه الحالة سبيلك للعودة إلى أمريكا ضيفًا على أكبر مراكز الأبحاث. على فكرة لسنا محتاجين لذلك من أجل أن نعود. كل ما نحتاجه تذاكر السفر!

حين ظنها انتهت، باغتته قائلة:

- توقف قليلًا عن الحلم بالكتاب الذي ستؤلفه عنها وكيف سيكون من الأكثر مبيعًا على قائمة النيويورك تايمز. هل تذكر يا عمر الحالة الأشهر لهذا المرض؟ حالة «سيبل»؟ أنسيت مذكراتها التي نُشرت في بداية السبعينيات؟ تبين بعد ذلك أنها مزيفة. هدفها كان المكسب المادي من وراء الكتاب، ثم من تحويله إلى فيلم سينمائي. هل تريد أن تنتهي مثلها، يشار إليك بأنك مزور طالب شهرة؟

اقشعر جسم عمر حين ذكّرته بقصة سيبل الشهيرة. عمَّ الهدوء الغرفة التي يجلسان بها.. يعلم أن أمره يهمها وأنها تريد مصلحته. يعرف جيدًا أن الدراسات بينت أسبابًا لإقدام البعض على محاولة الإيحاء بأنهم مرضى بهذا الاضطراب. أشارت الأبحاث إلى أن البعض يلجأ إلى ذلك من أجل جذب اهتمام مَن حولهم، وآخرون بغرض التكسب وكسب التعاطف. الأخطر من وسط كل هؤلاء مَن كانوا يحاولون التهرب من جرائم مرتكبة، أو أخرى محتملة يخططون لها.

يحاول رد هجومها:

- وماذا عن الأصوات التي تسمعها؟ ماذا عن نعمت وناعومي ونعيمة؟

ترد ببرود:

- مَن منّا لا يسمع أصواتًا؟ وكثيرًا ما نسميهم.. كلنا لنا أسرارنا الصغيرة، ومن ضمنها الأصوات التي نطيل التحاور معها.. ألا تسمع أصواتًا يا عمر؟

تستمر مذكرة إياه:

- من المعروف سهولة تمثيل الأعراض إلى حد كبير. في عالمنا اليوم، وبكم المعلومات المتاحة للعامة على الإنترنت، أي شخص بذكاء نعمت يمكنه تقمص الأعراض بيسر.

في هدوء يسألها عمر:

- ما الذي يُشككِ بها إلى هذا الحد؟ ما الذي جد؟

- أولًا أنا لا أحاول أن ألصق أيًا من هذا بنعمت، على العكس أود لو أني مخطئة. لكني الآن متفقة مع قلقك المبدئي من تقبلها لمرضها. المعتاد أن يحدث رفض ومقاومة للمريض في بداية إخباره بمرضه. أسترجع شريط جلساتنا معها فأجد أن هذا لم يحدث مع نعمت. على العكس أجدها ارتاحت لمَّا أخطرتها بتشخيصك.

تأفف عمر مؤكدًا صحة ما تقول:

- لا أنكر ذلك.

صمت قليلًا، ثم أضاف وكأن شكوكها انتقلت إليه:

- حالتها فعلًا شديدة المثالية. حالة مكتملة العناصر التي يحتاجها التشخيص بذلك المرض. تعرضت لاعتداءات جنسية وأخرى جسدية في سن صغيرة ممَّا قد يتسبب في صدمات ينتج عنها الانفصام أو التفارق، يُضاف إلى ذلك حالة التشتت والتباين الشديد، ما بين أبيها وأمها، التي نشأت وسطها. سأتفق معكِ ولو للحظة أن هذا الاكتمال للحالة مدعاة لبعض الشك.

ردت لورا:

- برغم هذا الكمال أو الاكتمال أجد ثقوبًا صغيرة في ثوب الأعراض التي أحسنت حياكته. زولا وما أخبرتها به من طلب زوجها دس المهدئات لها مثلاً. لماذا لم تواجهه حين عرفت؟ وهل كانت تنوي أن تخفي معرفتها بالأمر إلى ما لا نهاية؟ تظل تراوغني حين أحاول أن أجد منها إجابة عن ذلك. مرة واحدة، حين ملَّت من تكرار السؤال، أجابت بأنها لم تكن لديها خطة معينة في هذا الخصوص، وأنها كما اعتادت فضَّلت عدم المواجهة. كما أثار سكوتها عن زيجته الثانية تعجبي.

هنا انبرى عمر مدافعًا:

- أنتِ لا تفهمين تعامل المصريين مع موضوع التعدد. تصرين على أن الزيجة الثانية خيانة. في مجتمعنا لا تُعد خيانة. الخيانة عندنا هي العلاقة غير المشروعة. الزيجة الثانية أو الثالثة أو الرابعة هنا مشرعة ومشروعة. للأولى أن تعترض، ولكن المجتمع لا ينظر للرجل على أنه خائن. قد يشيرون إلى خطئه في عدم إبلاغ الزوجة، ولكنهم أبدًا لا يخونونه.

أسهب في شرح ما قالته نعيمة في إحدى الجلسات بأن ظل الرجل ولا ظل الحيط. اعترضت لورا على ما يقول لأنها لم ترَ أن مَن بمثل وضعية نعمت الاجتماعية بحاجة

للاستمرار مع عصام. بل العكس هو الصحيح، إنه هو مَن كان بحاجة للاستمرار لأسباب مادية في المقام الأول. عارضها عمر بأنه يعتقد أن عصام ونعمت علاقتهما مبنية على الحب. ربما يكون هذا الحب قد انطفأت جذوته مع السنين، لكن جذوره موجودة. ذكرها كيف تلمع عيناها وهي تتحدث عنه. اتفقت معه فيما قال بخصوص حبها له وأنه عوضها عن كثير من القسوة التي عرَّضها لها الرجلان اللذان سبقاه في حياتها، أبوها وأخوها. أطال في شرح أهمية الولد عند الرجل المصري، وأن هذا التمسك بالتناسل ربما كان الدافع الأوحد لعصام في الإقدام على فعلته. اعترف بقبلية هذه الأفكار، لكنه أصر على أنها ما زالت موجودة برغم التحضر الظاهر في الطبقات الأعلى.

بقدر ما حاول إقناع لورا بخلفيات نعمت وعصام ومسبباتهما، إلا أنه لم ينجح. لم تستطع استساغة فكرة التعدد، ولم تنجح في التفاوض مع نفسها على رؤيتها أو تعريفها بتعريفٍ آخر سوى الخيانة. خيانة ربما أدت لأن تسلك نعمت درب الانتقام من عصام بسببها.

نقلت لورا الحديث إلى نقطةٍ أخرى تحيرها بشدة:

- في أمريكا نقاطع أمهاتنا إذا أصبحت علاقتنا بهن مثل علاقة نعمت بأمها، ودون تردد. علاقة شقية لا طائل منها سوى الآلام. أعلم أن الشرق لا يتقبل ما نفعله حين نقاطع أهالينا. بقدر ما يعجبني تمسككم بغرى الارتباط بأهاليكم، بقدر ما أتعجب من الحالات التي تستمرون في تقديسهم برغم ما يتسببون فيه لكم من أذى. أمها آذتها حد أن نتج عن ذلك ولادة ناعومي التي لا هم لها سوى إرضاء أمها .أم لم ترضَ أبدًا، ويبدو لي أنها لن ترضى يومًا. سبب تعجبي بتمسكها أنها لم تكن لها يومًا أمًا حقيقية. مجرد زائرة تظهر حين تقرر ذلك، وبقية الوقت أقرب لشبح يتحكم فيها عن بعد. شبح تتبوأ مكانة لم تُقدم ما يُثبت استحقاقها لها. من شدة رفضي لتلك العلاقة تساورني شكوك في أن ما ترويه ناعومي عن أمها مختلق. لا أستطيع أن أقنع نفسي بأن ما تكنه لها حبًا بعد كل ما سمعت. لو أنها لا تبالغ، وإن صدقت، فهي إذن أقرب للمختطفة التي تقع في غرام مختطفها.

من جديد عاد الصمت يسود جلسة الطبيب وزوجته. كلاهما يتفكر فيما تبادلاه في حديثهما. بدأ عمر يفكر في وجاهة ما طرحته عليه. وجد أن لها كثيرًا من الحق في تشككها. لا يريد أن يعاندها أو يعاند ما تسرب إلى نفسه، إذ ماذا لو أن نعمت فعلًا تمثل. نعمت إنسانة عالية الذكاء ومثقفة. يسهل وصفها بأنها متمرسة عجنتها الحياة بخبرات واختبارات كثيرة مرت بها ممَّا أضاف لها قوة. غيرها كان سينهار لو تعرض لما خبرته، لكنها ما زالت صامدة. ذكاؤها هذا وقوتها يؤديان لعدة تفسيرات. أحدها أن تستخدمهما في التخطيط لما لا يخطر على البال. والآخر أن يصيبها مرض مثل الذي شخصها به عمر حشمت. يضاف إلى ذلك

دراستها وشهادتها في علم النفس. دراسة مؤكد تمكنها من تقمص الحالة. وهذه الدراسة نفسها تمكنها من التعامل والتعايش سنين طويلة مع المرض إن كان قد أصابها.

تواصل الحديث بينهما من جديد حين أخبرته لورا بأن أكثر ما تسبب في ازدياد ريبتها مؤخرًا كان حديث نعمت معها عن تعامل المحاكم في أمريكا مع حالات اضطراب الهوية التفارقي. بدا طبيعيًا أن تكون ناعومي بالذات هي مَن تناقشها، فهي الشخصية الثائرة وغير الاعتيادية من بين شخصياتها الثلاث الرئيسية. يومها استيقظت شكوك لورا التي حاولت تجاهلها. لكن ألحَّ عليها السؤال: لماذا طرأ مثل هذا التساؤل على ذهن نعمت؟ ربما يكون هذا أمرًا طبيعيًا على طريق رغبتها في معرفة كل ما يخص مرضها، لكن مع عودتها للعلم وأهمية الشك من أجل تحققه زادت تلك المناقشة بالذات من توتر الأمريكية.

telegram: @alanbyawardmsr

انزعج عمر وهو يتذكر أن ناعومي، حين فرغت من مناقشتها مع لورا، انسحبت فجأة وظهرت نعمت دون مقدمات لتواصل التحدث مع عمر عن كيفية تناول المحاكم المصرية لمثل هذه الحالات. تعجب حينها من تناوب ظهور ناعومي ونعمت أثناء تلك المناقشة. وحين أخبرهما بأنه مع شهادة الأطباء بالحالة فالأغلب أن يتم الإحالة إلى مستشفيات الأمراض النفسية، لاحظ ظهور الارتياح عليهما.

- أتعرفين يا لورا، ربما يجب علينا أن نأخذ راحة من حالة نعمت.. ربما انغمسنا فيها أكثر من اللازم.

ردت لورا كما لو أنها لم تسمعه:

- في ظني أنا ومن واقع خبرتي احتمالات مرضها أو ادعائها متساوية تمامًا. بل لو ثبت أنها مريضة، فإن رغبتها في الانتقام وتخطيطها له أمر منتظر واعتيادي في مثل حالتها. أما لو أنها سوية ومدعية فما ذهبت إليه لا يوصف سوى بالعبقرية.

ثم استطردت قائلة:

- لا أعرف تحديدًا ما يجب أن أتمنى لهذه الحالة. هل أتمنى أن تكون مريضة فعلًا وأن نساعدها على صهر شخصياتها لتصبح واحدة متكاملة، أم أن نكشف ادعاءها ونساعدها فنعالجها أيضًا على التخلص من الشرور التي دفعتها لذلك؟!

أصبح عمر ساهمًا وقد تحرك صوب النافذة الكبيرة التي تتوسط الحائط الذي خلف مكتبه. لا يدري لمَ قرر أن يفتح الستائر وهو الذي لا يُفضِّل ذلك في العادة. زغلل ضوء الشمس الساطع عينيه. أغمضهما وعاد يفتحهما فرأى نعمت تترجَّل من سيارتها. أخذ نفسًا عميقًا وهو يدرك أن تلك مشية ناعومي المملوءة ثقة وأناقة. سرح قليلًا مفكرًا إن كانت هي مَن

ستسيطر على جلسة يومهم أم إن أخرى ستتناوب الظهور معها. فرك عينيه محاولًا التأكد من أن مَن يراها هي مَن يظنها. أطال التحديق نحو مَن تسارعت خطواتها متجهة إلى المدخل. شعر بأن خطواتها غدت أكثر ترددًا. خُيل إليه أنها لم تعُد ممشوقة الجسد كما كانت أول ما لحظها. مشيتها أصبح بها تواضع وخطواتها مرتبكة وجسمها غير مفرود. كاد أن ينادي على نعيمة، لكن في تلك اللحظة داعب أذنيه صوت لوزا الهادئ وهي تقول:

- في الأول وفي الآخر هي إنسانة. إنسانة لو فضَّلت أن تغفر، وإنسانة أيضًا إن اختارت أن تنتقم.

28

خمس سنوات منذ غادرنا القاهرة عائدين إلى شيكاغو بعد ثلاث سنوات قضيناها في وطن زوجي، عمر. ثلاث سنوات استطاعت نعمت سيد أن تتصدر حياتنا في مصر. لم تتصدرها فقط، بل أستطيع القول إنها عنونت حياتنا هناك. لا أبالغ إن قلت إنها تمثل ما رجعنا به من هذا البلد. لا أكاد أقدر على استعادة أي ذكرى لنا هناك دون أن تكون هي جزء منها.

كنّا على وشك الهبوط في مطار القاهرة من أجل زيارة قصيرة، كان هناك دائمًا سبب مختلف لتأجيلها. مرة ضغط العمل عند عمر في المستشفى الجامعي، أو مؤتمر لا بد وأن يحضره، ومرة مدرسة نوح، أو ربما انشغالي أنا بعملي في مركز الصحة النفسية بالحي الذي نسكنه، أو ربما رغبة منّا في عدم قطع روتين حياتنا الذي أصبح معتادًا. السنوات الثلاث التي قضيناها في مصر لم تكن الأسهل. لم نُعانِ ما يجعلنا نشكو، لكننا لم نُصِب ما ذهبنا من أجله.

أنظر نحو النافذة من فوق رأس نوح النائم إلى جانبي. تتلألأ أضواء القاهرة فتبدو زاهية كعادتها مساءً، ومن بعيد. لا أنخدع بالمنظر الجميل، فأنا أعرف جيدًا التراب الذي يكسو وجه المدينة العريقة حين تشرق الشمس. تراب وزحام وكثير من الكآبة يسترهم المساء ويخفيهم النظر إليها من السماء. تعاودني أفكار كيف أردت أن أنشئ روابط بين نوح وجذوره. الجذور نفسها التي يريد عمر يومًا بعد يوم أن ينأى بنفسه عنها. ليس عمر وحده، بل أغلب مَن أحاطوا بنا من أهله. استغربوا عودتنا وإصراري على المكوث. أكاد أجزم بأنهم لولا الحرج لطلبوا منّا أن نأخذهم معنا إلى حيث ذهبنا. لو نطقت أعينهم، ولولا الخجل، لكانت بنصيحة أن نغادر. حتى أم عمر لم تتمسك بنا برغم فرحتها بقربنا. وددت لو أنها أوجدت الأسباب التي تبقينا، لكني شعرت بأنها عجزت عن ذلك. عجزت حين فكرت في الأفضل لابنها وحفيدها، على ما أظن. وطن لم يعُد يؤمن به أغلب مَن يقطنوه. حتى أنا اقتنعت بعدم جدوى موضوع الارتباط بمنشأ أجداده. آمنت بأن لكل بني آدم جذورًا تبدأ به وتنتهي عنده.

عادت نعمت سيد من جديد تحتل ذهني، وقد طلب منّا قائد الطائرة ربط الأحزمة استعدادًا للهبوط.. بدا لي، وقتها، أن تجاويها مع العلاج تسارع لمّا أخبرها عمر بنيتنا للرجوع. شجعنا على القرار عرض جامعة شيكاغو له كي يعود. كان ذلك بعد المؤتمر الذي قدّم فيه بحثه عن اضطراب الهوية التفارقي. بحث تعرّض، بحياد، لهذا المرض ومدى احتمالات الإصابة به. أظن أن مَن استمعوا إليه أعجبهم عدم انحيازه وعرضه لاحتمالات المصداقية التي يجب أن يتعامل معها الطبيب المعالج. برغم أن نعمت كانت مصدر ما عرضه، إلا أنه

أحسن طمس كثير من التفاصيل الخاصة بها. هكذا تراءى له كي لا يجور على قدسية العلاقة بينه وبين مريضته. ورقته البحتية استقبلت بكثير من التقدير قبل أن يعود أعطوه عرض عمل بالمستشفى الجامعي، إلى جانب منحة لتحضير رسالة الدكتوراه. عمر قبل عرضهم دون أن يشاورني. لا أستطيع لومه على قراره ولا أراه تسرعًا. ربما كانت بي رغبة خفية في البعد عن نعمت سيد وقصتها.

لكنها استمرت مطلة بقصتها علينا. ظلت على اتصال بعمر تخبره بما تمر به ويحدث لها. لا أدري لماذا لم تتواصل معي؟ هل أحست بشكي فيها؟ الملحوظ أن كل أخبارها كانت درامية، وبشدة.

لم تمر ستة أشهر على عودتنا إلا واستيقظنا على رنة تليفون زوجي في منتصف الليل. وجدت وجهه يعتليه الانزعاج قبل أن يبدأ بصوتٍ هادئ في مواساة المتصلة التي لم أجد صعوبة في معرفة أنها نعمت. أصبحت نعمت، دون غيرها، بعد ما أعلن عمر قبل مغادرتنا أنها وصلت إلى حالة اندماج تام، في رأيه. ثلاث سنوات وقت معقول، ليس مثاليًا، لعلاج مَن في حالتها. حين أنهى المكالمة أخبرني بأسى أن عصام، زوجها، قد مات. أزمة قلبية أنهت حياته، أزمة لم يكن لها عوارض ولا مقدمات. أول ما قفز في ذهني حينذاك كان تساؤل إن كانت قد واجهته قبل أن يتوفى بأنها تعرف بخيانته وزيجته الأخرى. شعرت بأني شريرة بعض الشيء، أن يكون هذا شاغلي وسط ما تمر هي به.

زاد التواصل بينها وبين عمر في الفترة التالية. أخبرته بأنها على اتصال مستمر بزوجة عصام الأخرى وأنها تعرفت على ابنه منها. أصبحتا تلتقيان كثيرًا. تنوي المساهمة في رعايته برغم عدم احتياجهما بعد أن ترك عصام لهما الكثير كما قالت. ستتكفل بتعليمه في أمريكا حين يصل لمرحلة الدراسة الجامعية، وستطلب من عمر المساعدة على إلحاقه بأحسن الجامعات، هكذا طلبت. هذه السيدة لا تكف عن إدهاشي. لا أستطيع تصور ولا تقبُّل كيف تتعامل مع ما اقترفه زوجها في حقها. أحيانًا أفكر في أن ما تفعله ليس سوى نوعٍ من تكفير ذنب ارتكبته هي في حقه. يعاودني إحساس أني شريرة حين أفكر بهذه الطريقة. يفند عمر تأويلاتي ويظل مصرًا على الدفاع عنها. لم يقُلها، ولكنه يكاد يتهمني أن بي غيرة منها. لا أنكر أنني مع الوقت مللت اهتمامه الزائد بها، ولكني بالتأكيد لا أغار من علاقته بها، فهي مريضته.

بعد قرابة العامين من وفاة عصام، وصلتنا أخبار جديدة عن حياتها. سيد، أخوها، هرب من مصر بعد أن حاصرته الديون وقضايا البنوك ضده. ترك إمبراطوريته وفر إلى أوزبا. لم نستغرب ما آل إليه حال أخيها بما كنّا نعرفه عن رعونته وتهوره في إدارة الشركات. أو ربما

عدم خبرته وعدم تداخله في أمور الأعمال وقت أبيه. لم يمسسها هروبه ماديًا، فقد اشترى منها أسهمها في الشركات قبل سنوات. أتذكر حدوث عملية البيع بعد أشهر من بداية جلسات علاجها معنا. أخبرتنا بذلك في إحدى الجلسات مع شكوى بأن السعر لم يكن عادلًا. ولكنها قبلت على كل حال. نزلت، كما قالت، على رغبة زوجها وأمها. أخبرني عمر وقتها بأنها رغم تنازلها في الثمن، قد أصابت ما يقارب المليار جنيه. تعاطفت معها وتفهمت قبولها فأرجعته لرغبة منها في إراحة بالها. تصورت أني لو مكانها لما قبلت أبدًا إلا بالسعر العادل.

استمرت حكاياتها عن سيد وكيف عادت إلى الشركة كي تعاون ابنيه اللذين تركهما في مصر غير قادرَين على الفرار مثله. تولت مسئولية التفاوض مع البنوك التي طلبت منها تولي إدارة الشركات للخروج بها من كبوتها. أشار عمر إلى أنها أصبح بها نوع من النشوة بعد أن عادت للعمل برغم ثقل المأمورية. لم أستغرب ذلك، فقد كنت أعرف أهمية الشركات بالنسبة لها، وكيف كانت متنفسها ومحل تحققها. كل حين وآخر كنت أسأل زوجي إن كانت نعمت تذكرني في أحاديثها معه. يرد باقتضاب بأنها ترسل لي التحية.

استمر زوجي يمدح ما أصبحت مريضته عليه.. علاقتها - الصحية كما يسميها - بزوجة زوجها الراحل، واهتمامها بابنه، ومحاولاتها التخطيط لمستقبله. لا يقبل تبرمي من ذلك وإشارتي إلى أنه نوع من التمسك المرَضي، في رأيي. يشيد كلما تناقشنا بموقفها من أخيها وتدخلها لإنقاذ الموقف. أحتفظ لنفسي، في أغلب الأوقات، بتعجبي ممَّا تفعل. لا أريد أن يذهب به تفكيره إلى أنني أغار من السيدة نعمت. يسهب في إبداء إعجابه بعدم هشاشتها رغم ما مرت به. وجدت أنه لا داعي لمعارضته أو إبداء الدهشة من أفعالها التي أرى أغلبها لا منطقية، أو ربما العيب فيَّ أنا بحكم عدم درايتي بالمقبول والمثاب من أهل مصر.

أسأله إن كانت قد أخبرته عن أمها أو آدم، فأستغرب حين يخبرني بأنها لا تذكرهما على الإطلاق. أسرح متفكرة فيما إن كانت قد استطاعت التخلص من تسلط أمها. لا بد وأن والدتها تحاول أن تكون جزءًا من المشهد، ولا بد أن نعمت، الجديدة، تقاوم ذلك. يراودني خاطر إن كانت نعمت قد أطلعت أمها على ما شخصناها به. أوسع الخاطرة لتصبح إن كانت قد أخبرت أي أحد بمرضها أم احتفظت بذلك لنفسها.

ترتج طائرتنا وهي تلامس أرض مصر قبل أن يسيطر عليها قائدها فيكبح جماحها معلنًا وصولنا بالسلامة. تتوالى في مخيلتي في تسارع أوجه نعمت وناعومي ونعيمة. أعلم أنهن لن يتوقفن عن تظليل حياتي أنا وعمر، وسأظل أشك في أن ثلاثتهن حقيقيات. أطمئن نفسي بأن شكي صحي، وعلمي، ثم أعود فأحاول أن أفاوض نفسي بأن تشخيص عمر كان صحيحًا، وأنه استطاع، بمعاونتي، شفاءها.

ما إن توقفت المحركات حتى سمعت صوت وصول رسالة إلى هاتف عمر. لا بد أنها نعمت ترحب بوصوله. ساءني سيطرتها على تفكيري. أتحكم في رد فعلي بأن لا يظهر عليّ ملل أو تبرم من علاقتهما الوثيقة، فهذا لا يليق بي، لم أعتد نفسي إلا واثقة من مشاعري. مللت الشك الذي يصاحب ظهورها. حاولت استعادة هدوئي. وكأنه لا يريد لي ذلك، التفت نحوي بعد أن قرأ الرسالة. بابتسامةٍ نصف مكتملةٍ همس:

- يا ترى أي نعمت سنقابل في زيارتنا؟

أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة
والنادرة والجديدة

مكتبة بيت الحصريات أسم على مسمى